

فنك للكتب
المعرفة للجميع
KNOWLEDGE FOR ALL
CONNAISSANCE POUR TOUS



قاسم سليماني

رجل القدر

عبد العزيز بوباكير






02 شارع محمد سليماني، حي حيرش إبراهيم، العلمة، سطيف
البريد الالكتروني: elwatan.elyoum@gmail.com
الكتاب: بوتفليقة رجل القدر
المؤلف: عبد العزيز بوباكير
مصمم الغلاف: حكيم خالد
الصنف: علوم اجتماعية
الحجم: 19/11.5
عدد الصفحات: 126

ردمك: 1-72-679-9931-978
الإيداع القانوني: جوان، 2019

مسؤول النشر: كمال قرور
مديرة السّلسلة: نوّارة لحرش
الإشراف العام: ناصر معماش والخير شوار
مصلحة التسويق (النقال): 07.70.32.02.08

بوتفليقة رجل القدر

الـمُشعوذ والرؤساء السبعة...

تنسب إلى الشيخ الطاهر بن الموفّق، وهو أحد المشعوذين، الذين عاصروا الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، وتوفيّ في ماي 1935، نبوءة طريفة يقول فيها "عندما تستقل الجزائر سيحكمها سبعة رؤساء على التوالي: (أولهم بهلول) أحمد بن بلة (وثانيهم رمول) هواري بومدين (والثالث حطّوه ايقول) الشاذلي بن جديد (ورابعهم يموت مقتول) محمد بوضياف (والخامس بقرة محاطة بالعجول) عَلي كافي (وسادسهم يكثر معاه القتل والهول) لمين زروال (وسابعهم هو اللّي يجيب الحلول) عبد العزيز بوتفليقة!!!.

رسالة مغلقة إلى بوتفليقة

أكتب إليكم هذه الرسالة التي فضّلت أن تكون مُغلقة مُشمّعةً، خلافا للمواطنين البسطاء الذين يكتبون إلى فخامتكم رسائل مفتوحة مفضوحة، ورجائي الوحيد أن أقتطع بعضا من وقتكم الثمين لقراءتها، أكتب إليكم ليس للشكوى، فأنا أعرف أن الشكوى ليست شيمة من شيّم الرجال، إنما هي ميزة الضعفاء والمستضعفين. وأنا لست منهم. أكتب إليكم لأطرح مشكلة عويصة تفاقمت منذ صعودكم إلى سدّة الحكم.

فخامة الرئيس،

لعلكم لاحظتم أن مواطنينا الأميين تعلّموا بقدرة قادر بين عشية وضحاها أبجديات الكتابة، وأصيبوا بما يشبه حمى مراسلتكم، فأصبحت أطنان من "البريّات" تصلكم، وأطنانٌ أخرى تُنشر في الجرائد، وأمثالها في الوزن تضيع في الطريق.

وقد بلغني أن وزير "البوسطات" عيّن فريقا كاملا من سُعاة البريد لحمل أكياس الرسائل المفتوحة إلى الرئاسة، وعلمت أيضا أنَّكم نصّبتم فوجا من القراء لفك ألغاز هذه الخربشات وتلخيصها وتقديمها لكم يوميا. وهذه الرسائل ليست عادية، وإنما مفتوحة. والرسالة المفتوحة تفقد، بطبيعة الحال، طابع السرية والحميمية، لكن مواطنينا المساكين لا يفهمون هذه الأمور، ويريدون من خلال مخاطبتكم سبّ بعضهم البعض، وشتم مسؤوليهم المباشرين، ومحاكمة الكل أمام الملأ، إنها حربُ الجميع مُعلنة على الجميع، كما يقول هوبس. فبعد أن كانوا يراسلون وسيط الجمهورية، الذي نسيّ الوساطة واشتغل بالسياسة، فرحوا أيّما فرحة، لما ألغيتم الوساطة حفاظا على الجمهورية، وعزلتم "حباشي"، الذي لم يكن يُفرّق بين الشعب والشُعب. أقول، مواطنونا لا يفهمون أن رئيس الجمهورية إنسان ليس ككل النّاس. فهو يدير شؤون "دولة الحمد الله ما عندهاش مشاكل"، ويلتقي كبار هذا العالم، ويدرس ملفات سرية، وليس لديه الوقت لقراءة رسائل ضعيفة

اللغة، ركيكة الأسلوب، رديئة الخط. وهم بدل أن يدافعوا عن حقوقهم بالنواجذ، صاروا كالذي يشتكي وما به داء. لكنهم لا يُلامون على ذلك، فهم طَرقوا كل الأبواب التي سُدّت في وجوههم، ولهذا قرروا إزعاج رئيسهم العزيز، لأنهم يعتبرونه المرجع الأعلى الذي ما بعده مرجع، وحتى اليهودي الجزائري رافائيل درعي تجرأ على أن يكتب لكم رسالة مفتوحة في شكل كتاب. وأنا الآن أتسلى بجمع هذه الرسائل وتصنيفها والتعليق عليها ووضع الحواشي لها، وقد وجدت فيها العجب العُجاب. هل يعقل أن يكتب إنسان لرئيس الجمهورية لمجرد أن إنسانا آخر لم يدفع له ثمن الحمار الذي باعه له؟ وهل نقبل بأن يزعج مواطن القاضي الأول في البلد لأن زوجته طلّقته؟ وكيف نغفر لمرن في حفرة منسية في الجزائر الشاسعة يتجرأ على مطالبة رئيسنا المنتخب بإرجاعه إلى منصب عمله الحقير؟ وهل من المعقول أن نصرف الرئيس عن مشاغله العديدة ونكتب له عن فضائح المناديب، عفوا المندوبين البلديين، الذين نهبوا البلاد والعباد، وأيّ عقل يقبل أن يقرأ رئيسنا المحترم

شكوى مغبون ذي عشرة أطفال يقطن في حي قصديري، وينتظر سكنا اجتماعيا منذ أن ولدته أمه. ألا نخشى الله في رئيسنا، ونحن نبهدله أمام الرؤساء الأجانب بشكاوٍ من نوع "أطلب من سيادة الرئيس التدخل لأن جاري فقأ لي عيني، أو أن النائب الفلاني أطلق الرصاص على زوجتي، أو أن "الماتش" الفلاني بيع للنادي الفلاني، أو أن فلانا ليس مجاهدا حقيقيا وإنما هو حركي حقير، وأن الجمركي الفلاني يأخذ الرشوة في وضح النهار وبعلم المدير العام، أو أن الشرطي الفلاني حقّار، أو أن الشهادات تُباع في المزاد العلني، وهلَم جرا...

سيادة الرئيس،

اغفروا لمواطنيكم شكاويهم الأليمة وبكائياتكم الصارخة، فأنتم تعرفون أنّ الجزائري صاحب "النيف والخسارة"، شبّ على الشكوى والبكاء والنحيب والنديب، وهو ما كان يتجرأ على إزعاجكم لو أنه وجد أذنا مثل أذنكم صاغية، ويدا مثل يدكم رفيقة، وقلبا مثل قلبكم سمحا، ومراسلته لكم دليل على أن الأمور في البلاد سائرة إلى الهاوية، بعد أن انقطعت أمام الناس السبل، وسُدّت في وجوههم الأبواب، وأوصدت أمام

أنوفهم النوافذ، وأصبح الإرهاب الإداري أشد وأنكى من الإرهاب الأصولي، وانقطعت قنوات التواصل بين "التحت و"الفوق".

فخامة الرئيس،

لست في مقام يسمح لي بإسداء النصح لكم، لكني لو كنت جالسا فوق كرسيكم الرفيع لعزلت الوزراء والنواب والولاة ورؤساء الدوائر والنواب وشيوخ البلديات والمديرين المركزيين، الذين لا يسمعون إلى المواطنين، وخلعت على نفسي لقب "المستبد المستنير" وحكمت الرعية وحدي، وأغلقت كل صناديق البريد في البلاد منعت إصدار الطوابع البريدية والأظرفة، وأغلقت مصانع الورق، ووقفت الجرائد التي تتاجر بالرسائل المفتوحة، وفرّقت الكتّاب العموميين الذين اغتنوا على ظهر المواطنين، ثم بعد ذلك أمرت بحبس كل من يتجرأ على إقلاق راحتي بشكوى سواء كانت مفتوحة أو مغلقة، وجعلت الجميع يشكون، كما يقول المثل، إلى غير مُصمت، فالورق الذي تُكتب عليه هذه الرسائل المفتوحة قد يكون صبورا، لكن من حقكم كرئيس يقرأ هذه الرسائل أن تفقدوا صبركم.

رئيسنا طلّق الأرض وسكن السماء

رئيسنا طلَّق الأرض وسكن السماء، وكلّما رأيته "يمتطي" الطائرة رفعت يدي إلى السماء متمنيا له رحلة ميمونة. وكلّما رأيته ينزل من الطائرة حمدت الله على سلامته، وتمنيت لو طلَّق السماء وسكن معنا فوق هذه الأرض الجزائرية المُثخنة بالجراح.

الجزائر لم تعرف بين حكامها رئيسا حلّق في الجو أكثر مما مشى على أرضها، مثلما فعل ويفعل الرئيس عبد العزيز بوتفليقة. فقد حطّم برحلاته المكوكية الرقم القياسي في الإقلاع والهبوط، لا يكلّ ولا يملّ من السفر، ضرب بعصا ترحاله أرضية كل مطارات الدنيا، الحقيقية منها والافتراضية. لا تحطّ طائرته إلا لتُقلع، وحين تُقلع سرعان ما تحطُ. يزور البلدان الشقيقة والصديقة.. غير الصديقة وغير الشقيقة..يزور بسبب،

وبلا سبب، بدعوات رسمية، وأحيانا بلا دعوات. زياراته اتخذت كل الأشكال والأصباغ من زيارة دولة، إلى زيارة رسمية، إلى زيارة علنية، إلى زيارة سرية، إلى زيارة ودية، إلى زيارة مجاملة، إلى حد جعلني أتساءل لما لا يدرج إسمه في كتاب "غينسبوك" للأرقام القياسية. فالأميال التي قطعها ستؤهله بالتأكيد، إلى تصدَر قائمة أكبر الرَحالة في تاريخ البشرية بدءا بالمغربي ابن بطوطة، مرورا بالإيطالي ماركو بولو، وإنتهاء بعمدة وزارة الخارجية في تاريخ السياسة، السوفييتي أندري غروميكو. وأنا متأكد أن اسمه سيدرج، بحول الله، إن استمر الرئيس في سفرياته بنفس الهمَة والعزم والوتيرة إلى نهاية عهدته الثانية.

وقد تفوّق الرئيس عبد العزيز بوتفليقة بسفرياته على كل ما سبقه من حكَامنا الأشاوس.

فأحمد بن بلة لم يزر خلال فترة حكمه القصيرة إلا بعض الدول العربية والإفريقية، فقد ألهته مشاكل الاستقلال عن السفر، كما أنه لم يعرف من الزعماء الأجانب إلا بعض الأسماء كانت تشاطره، أو بالأحرى كان يشاطرها نفس الأفكار، ونفس التوجهات تقريبا،

مثل جمال عبد الناصر وفيدال كاسترو ونكروما وتشي غيفارا.

أما الرئيس هواري بومدين، فكان يكره الأسفار ولا يميل إليها، وكان يخشى على كرسيه، ويدرك جيدا أن أسنح فرصة وأفضل وقت للانقلابات هي الغياب. ولم يسافر إلا بعد أن وطَد دعائم حكمه، وبسط جناحيه على أرض الجزائر وسمائها. وكان يفعل ذلك مضطرا، وحين يضطر إلى ذلك يفضل الذهاب إلى الدول الاشتراكية والبلدان العربية ودول العالم الثالث التي تشبه بلده، ليروِج لأفكار عدم الانحياز والاشتراكية الخصوصية والتضامن العربي ومحاربة الإمبريالية والصهيونية، وما إلى ذلك من شعارات ذلك العهد الزاخر بالإخفاقات. وكان حلمه أن يدخل فرنسا، مثلما دخل صقر قريش الأندلس، فاتحا غانما من بابها الواسع، لكن لم يحقق حلمه. أما الشاذلي بن جديد، فرغم حبه للحياة وإقباله على ملذّاتها، فإنه لم يكتشف متعة السفر إلا بعد سنوات أخيرة من حكمه قبل أن يستقيل، أو بالأحرى قبل أن يُقال. فأما عَلي كافي، لم يسجل له

التاريخ أي ذكر في سجل الأسفار، وكانت رحلاته في أبعاد أخرى.

وأما محمد بوضياف فقد سافر إلى العالم الآخر مُغتالا، وقبل أن يكتشف رفاهية الطائرة الرئاسية ولين العيش على متنها. رئيسنا إذن مسفار، والناس تغبطه وتحسده على ذلك، وتنسى أنه كان سندبادا جويا قبل أربعين سنة خلت، حين كان وزيرا للخارجية، ومن شبَّ على شيء شاب عليه، والأسفار تصنع الشباب، كما يقول المثل الفرنسي، فمنذ ذلك الوقت طلَق عبد العزيز بوتفليقة الأرض وسكن السماء، وعاش متنقلا من قارة إلى أخرى، ومن بلد إلى آخر، يشارك في المؤتمرات ويحضر الندوات ، هدفه تلميع صورة بلده، ومسعاه إصلاح ذات البين بين الشعوب، وفي أضواء الصالونات وكواليس السياسة عاش أيضا مسافرا، فالطائرة هي مطيّته، وهي مكتبه، وهي مرقده، وهي حبه المفضل، أما الغُبّطُ له والحسَاد، فإن الرئيس يرد عليهم : نعم أنا رئيس مسفار يبحث عن أطراف الحديث في أطراف العالم. نعم أنا رئيس مسفار يعرف من ماذا هو هارب، ولكنه يجهل عما يبحث. حصيلة ثلاث سنوات

منذ اعتلائه سدة الحكم، أسفار، أسفار، أسفار، وحصيلة أسفاره وئام مدني، ليس عليه إجماع، وائتلاف حكومي، ليس فيه ائتلاف، وبرنامج إنعاش اقتصادي، ليس فيه انتعاش. رئيسنا طلَق الأرض وسكن السماء، وكلّما رأيته يمتطي الطائرة رفعت يدي إلى السماء متمنيا له رحلة ميمونة. وكلّما رأيته ينزل من الطائرة حمدت الله على سلامته، وتمنّيت لو طلَق السماء وسكن معنا فوق هذه الأرض الجزائرية المُثخنة بالجراح.

استزادة:

أخيرا رئيسنا، حفظه الله، طلّق السماء وسكن الأرض في كرسي متحرك.

فرائد السياسة:

قال غيستاف ليبون:

"من السهل السيطرة على الشعوب ليس بالاهتمام بمصالحها، لكن بتحريض مشاعرها"

قال هونوري دي بالزاك: "هل تعرفون أنه لا يوجد في أمة سوى خمسين أو ستين رأسا خطيرا يتوافق فيها الفكر والطموح؟ حسن القيادة هي أن تعرف هذه الرؤوس لقطعها أو شرائها"

الإخوة الأعداء

كتب محمد بن شيكو كتابه "بوتفليقة بهتان جزائري Bouteflika: une imposture algérienne" استنادا إلى مصدر أساسي هو الشريف بلقاسم، وكنت أنا سأكتب الكتاب نفسه بالعربية بشرط ذكر المصدر، لكن الشريف بلقاسم رفض ذلك.

والشريف بلقاسم هذا، المعروف بسي جمال، لا ينطق عن الهوى، فهو "حيوان سياسي" يعرف ماذا يقول، ولمن يقول، ومتى يقول. وهو ابن النظام المدلّل حتى بعد أن أبعدته ملابسات غريبة عن الحكم في سنة 1972، وقلّما نجد في أوساط السياسيين رجلا مثله، خبر السياسة ظاهرها وباطنها، وعرف السياسيين في أوج تألقهم وذروة مجدهم وفي متاهات انحدارهم وصقيع عزلتهم، وهو حين يقول رأيه في السياسة والسياسيين،

إنما يفعل ذلك من منطلق أن "فن البوليتيك" هو خدمة الحال في كلّ الأحوال، كما قال لويس الرابع عشر.

"سي جمال" كان أحد أبرز وجوه نواة وجدة الصلبة، التي أوصلت أحمد بن بلة إلى سدّة الحكم، ثم انقلبت عليه بسبب استفراده بالحكم، ولعب دورا حاسما في انقلاب 19 جوان 1965، وأصبح منظّر الانقلابيين، وضامن انسجام عقدهم المعنوي، ومفسر خططهم، وشارح برامجهم. كما كان المحور الرئيسي في لعبة التوازنات، يضبط الخلافات، ويذلل التناقضات، ويزيل العوائق بين الانقلابيين غير المتجانسين. وظل طيلة سبع سنوات رجل ظل يعمل في الخفاء، بعيدا عن الأضواء والنجومية، إلى أن عصفت به فضائح "ليالي الجزائر الجنونية"، التي اعتبرها البعض مؤامرة مدبّرة ضده لتحييده وتعكير صفو العلاقة بينه وبين الرئيس هواري بومدين.

بعد إبعاده أو استبعاده عن مجلس الثورة، استقر الشريف بلقاسم في الخارج، بعيدا عن الصراعات

السياسية وحروب المواقع ودسائس السرايا، إلى أن أعادته أحداث أكتوبر الأليمة إلى واجهة الأحداث، حين تزعم مبادرة 18 شخصية وطنية بارزة وقّعت على بيان يطالب برحيل الشاذلي بن جديد، واستغلال الطاقة التحفيزية التي خلقتها ديناميكية أكتوبر لإصلاح بنية النظام وإشاعة قيّم الديمقراطية والانفتاح وحرية التعبير. ومن غريب الصدف أن يكون عبد العزيز بوتفليقة من الموقّعين على هذا البيان إلى جانب الشريف بلقاسم.

بعد رحيل الشاذلي بن جديد تكوّنت عند الرأي العام صورة عن سي جمال، صورة رجل دولة متزن وسياسي بعيد البصيرة، يعمل بهدوء ورصانة، بعيدا عن الحسابات الأنانية والأهواء الذاتية والأطماع الدنيئة، سياسي فوق كل الشبهات، يعرض خدماته مجانا للمصلحة العليا للدولة، ويُسدي النصح للفاعلين الحقيقيين في السر والعلن. وقد ارتبطت هذه الصورة، حقيقة، بحس براغماتي قويّ وحصافة سياسية نادرة جعلت الدوائر الحاكمة تلجأ إلى خدماته، وتطلب

نصائحه كلّما دخلت البلاد في مأزق وانسدت أمامها المنافذ والأبواب.

حدث ذلك بعد أحداث أكتوبر 1988، وحدث ذلك سنة 1994 حين لجأ اليمين زروال إليه لإقناع عبد العزيز بوتفليقة باستلام كرسي الرئاسة. والغريب في الأمر أن سي جمال، الذي حاول مرتين إقناع عبد العزيز بوتفليقة بقبول شروط الجيش لاعتلاء سدّة الحكم، هو نفسه الذي ترشح ضده رمزيا سنة 1999 لسدّ الطريق عليه إلى المرادية، متهما إياه بأنه خطر على البلاد ومؤسساتها الدستورية..

فما هو سبب هذا التقلب المفاجئ؟

الحقيقة أن الرجلين يعرفان بعضهما البعض منذ أن كانا في وجدة، ومنذ أن جمع بينهما بومدين، ومنذ أن توليا مسؤوليات هامة في حكومة بن بلة، ثم شاركا بعد ذلك في انقلاب العقيد بومدين.

كان بوتفليقة يجلس إلى يمين بومدين والشريف بلقاسم إلى يساره، وكانت العلاقة بين الرجلين غامضة متقلبة متناقضة يشوبها الكثير من الحسد والغيرة وسوء

الفهم وتضارب المصالح والرفض المتبادل، ولم يكن أساس الخلاف حول تصوّر نظام الحكم وطبيعة النظام وأهدافه البعيدة.

وقد خلقت هذه العلاقة المتوترة حالة شاذة، بحيث أصبح كل واحد منهما ينظر إلى الأخر على أساس أنه شخصه بالذات ALTER EGO لكن بدون ثقة ولا ائتمان، وتحوّلا بعد مسيرة 40 سنة إلى "إخوة أعداء".

ما قاله سي جمل لمحمد بن شيكو، قاله لي، فهو مازال مصرا على أن بوتفليقة قليل الدراية بالسياسة وليس من محترفيها، ولا يمارسها إلا حين يشعر بالتهديد، وأنه يعشق الأضواء ويهوى الكلمة، وإنه شخص متناقض، وهو لا يعترف بالخطأ ويحمل أخطاءه للآخرين، وأنه يقود البلاد إلى الهاوية، وأنه آن الأوان ليدخل إلى بيته، كما هدّد مرارا وتكرارا وهلّم جرا...

الشيوخ يفكرون من أجلكم

"المناصب والرتب السامية والثروات الطائلة ضرورية للشيوخ لإقصاء الشباب الميّالين لشتمهم بسبب تقدّمهم في السن"

جوناثان سويفت.

سيغادر بيل كلينتون في الأيّام المقبلة البيت الأبيض وعمره 53 سنة. وسينصرف، بلا شك، إلى كتابة مذكراته وإلى إنشاء مؤسسة تحمل اسمه لتسهر على عمل خيري ما، وربّما سيحتار بين إعادة دفء العلاقة بينه وبين زوجته هيلاري أو ممارسة نزواته العديدة المكبوتة. أقوى رجل في العالم يغادر الحكم، ولم يمض على عهدة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة الأولى سوى 19 شهرا، وسيكون عمره في نهاية العهدة إذا استمرت وأُنتخب 68 سنة، وسيبلغ من العمر في عهدته الثانية إذا أُنتخب 73 سنة، وسيشارف 80 عاما

إذا أطال الله عمره وأعانه على تعديل الدستور الذي لا يبيحه، وعلى جعل الرئاسة له دون سواه مدى الحياة.

كلينتون يغادر وبوتفليقة باق... وهو لا يغبطه على خروجه من البيت الأبيض. فحين كان بوتفليقة وزيرا للشباب في سنة 1962 كان كلينتون تلميذا في الكوليج، لا يفقه في السياسة شيئا، ولا يعرف السياسيين، ما عدا مصافحته بالصدفة لجون كنيدي في حملة انتخابية.

بوتفليقة لا يبالي أيضا بالرؤساء الشباب الآخرين، حتى ولو كانوا على رأس دول عظمى.. فطوني بلير وفلاديمير بوتين كانا تلميذين بالكوليج حين كان هو وزيرا للشباب سنة 1962.

أما نظراؤه من الملوك والرؤساء العرب، فإن بوتفليقة يمارس عليهم أبوية مستحقة، فهو عاشر آباءهم، وتعاطى معهم دسائس السياسة، والبعض منهم عرف حتى أجداده، وهو حين كان وزيرا للشباب لم يكن قد وُلد بعد الملك المغربي محمد السادس والملك الأردني عبد الله، والأمير القطري حمد بن خليفة آل ثان والرئيس السوري بشار الأسد.

والآن كلّهم صغار تتراوح أعمارهم بين 34 و38سنة، وهم مبتدئون في السياسة، ولا يعرفون منها إلا الأبجديات. بوتفليقة يختصر ثلاثة أجيال من السياسيين.. الأجداد لأنهم ماتوا، والآباء لأنهم ذهبوا، والأبناء لأنهم مبتدئون. وهو حين يلتقي الملوك والرؤساء العرب الشباب المبتدئين، أو حين يحلم بلقاء زعماء الغرب المتمرسين، يتذكر، بلا شك، أيامه الخوالي حين كان يصول ويجول في أصقاع العالم، ويخطب من أعلى منابره ويعيش في أبعاده المخملية.. عالم حافل بالأضواء، مليء بالمفاتن، عالم اجتمع فيه لبوتفليقة قوة الشباب وعنفوان المجد وسحر الأفكار الجديدة.

كان بوتفليقة أصغر وزير خارجية في العالم. وكان يمثل بالنسبة لجيل الاستقلال رمزا للفتوة ومثالا لقوّة الإرادة ونموذجا لسحر النجاح... هذه الصورة رافقها على مستوى الخطاب السياسي وعد بتسليم المشعل إلى الجيل الجديد لضمان الاستمرارية والتجديد. لكن ذلك لم يحدث، واستمر الجيل القديم في انفراده بالسلطة ومزاياها.

بوتفليقة بلغ ذرى المجد وهو شاب، وسُرق منه هذا المجد وهو لا يزال شابا في سنة 1978، وقضى عشرين سنة يعبر صحراء قاحلة موزعا وقته بين استشارات لملوك وأمراء الخليج، وقراءة الكتب والتأمل. ثم عاد ثانية وأراد أن يعيد الشباب لبلده الذي أنهكته سنوات الفوضى والجنون. ورغم تجاوزه الستين من العمر، حافظ بوتفليقة على نضارة الشباب، واحتلت قضايا الشباب حيّزا هاما في برنامجه الانتخابي. ووعد الشباب في حملته بأن يفتح لهم نوافذ الحلم ويشرّع أمامهم أبواب الأمل. وشنّ حملات هوجاء ضد العشرية السوداء التي همّشت الشباب وأجهضت تطلعاته وقضّت مضاجعه.

أصبح بوتفليقة رئيسا، لكنه لم يعد شابا، وحين تربّع على عرش المرادية وضع مقياسا للكفاءة، وهو أن من هم دون الخمسين ليسوا أكفاء، فأحاط نفسه بمستشارين تجاوزوا الستين وقضوا نصف عمرهم بعيدا عن البلد وعن مشاكله، وانتشل من النسيان أسماء ارتبطت بالعشرية السوداء لا تفهم آمال وتطلعات الشباب، بل

تعتبر الشباب هو سبب البلوى التي أصابت البلد. وإلا كيف نفسر عودة بلخير وبيطاط ومساعدية ورحال وغيرهم من الشيوخ إلى أضواء البلاط؟

يحدث هذا في وقت تتجدّد فيه الطبقات السياسية في العالم كل عشر سنوات، وبتجدّدها تتجدد الأفكار وتتلاقح التجارب وتتكامل الأجيال. أما عندنا فقد اختصر جيل واحد ثلاثة أجيال كاملة باستحواذه على رُيوعِ الثورة ومنافع الثروة، جيل جعل من الأبوية والاحتكار والإقصاء والتهميش شعارا له في شبه مملكة تشبه الاقطاعات القديمة التي علّقت على أبواب مداخلها شعارا يقول: هنا حكم الشيوخ (Gérontocratie) وعقيدتها، أيّها الشباب لا تفكروا، إن الشيوخ يفكرون من أجلكم..

صنّاع الرؤساء

صنّاع الرئيس في بلادي ينشطون في مواسم الصيف المتعفنة، ويعيشون بلا أسماء، مثل الخفافيش، في الظلام. لا أحد يعرف وجوههم. ولا أحد يعرف أسماءهم، ولا أحد أحصى عددهم. هم لا يشبهون الأساقفة الكاثوليك الذين كانوا يصنعون الملوك والأمراء مثل الدمى في أوربا في القرون الوسطى.

وهم لا يشبهون مجلس الحكماء الذين يصنعون السلاطين ويضعون العمائم على رؤوسهم في أدغال افريقيا، وهم لا يشبهون العسكر المتقاعدين من مافيا "كلدونا" في شمال نيجيريا. اصطناع الرؤساء حرفة قائمة بذاتها في الجزائر، أو كما يقول أبو حيان التوحيدي قائمة برأسها، قلَّ من يُحسن تعهدّها، أو يأتي لها، أو يعرف حلاوتها، وهي حرفة لا تشبه الحرف الأخرى المعروفة، التي يمارسها البشر

العلديون، ومع ذلك فهي لا تتطلب مهارات خاصة، ولا تقتضي ملكات خارقة، ولا تستوجب دُربة معيّنة، ولا تحتاج حتى إلى التّفَقّهِ في أبجديات السياسة، ومعرفة مفردات فنّها، لأن المطلوب هو تحويل ما هو مستحيل في البلدان الأخرى إلى ممكن عندنا، أي الاطاحة برئيس واستبداله برئيس آخر، يكفي صاحب هذه الحرفة أن يكون من ذوي الجاه والنفوذ، وأن ينفذ الى أقبية الحكم المظلمة، ثم يوهم نفسه أن في إمكانه أن يُعلي من يشاء، ويُنزل من العرش من يشاء، ليصبح عضوا من أعضاء زمرة صنّاع الرؤساء.

وأغرب ما في محترفي صناعة الرؤساء هو أنهم ينتمون إلى ما يشبه الطائفة المغلقة المقفلة المنطوية على نفسها، التي تصنع "طوطما" تعبده ثم تأكله، وهذه الطائفة لا أحد يعرف أسماء أعضاءها، ولا أحد أحصى عددهم، هم مناكير بلا أسماء، يعيشون مثل الأشباح في الظلام، وعددهم يتغيّر باستمرار، أحيانا هم خمسة، وأحيانا أخرى أحد عشر، وأحيانا واحد أوحد، تضيق حلقتهم وتوسع بحسب الظروف، يسميهم البعض "المخبر الأسود"، ويدعوهم البعض الآخر باسم "صنّاع

الملك"، وآخرون يطلقون عليهم اسم "المافيا السياسية المالية"، يتغير العدد وتختلف التسميات، لكن المهم هو انهم يُتقنون بامتياز حرفة صناعة الرئيس، بحسب مقتضى الحال.

وحين تكون الغاية واضحة تهون الوسائل ويصبح كل شيء مباحا متاحا، ويلجأ صنّاع الرؤساء إلى استعمال المكر والخديعة والاحتيال لزعزعة الجالس على العرش وتمهيد الطريق للمرشح القادم للرّياسة من أجل التلاعب به كما يحلو لهم، ويُقام الكرنفال، وتشارك فيه الأحزاب الطراطير والصحافة المأجورة، ويصبح الكل متواطئا، من حيث لا يدري، في كرنفال اصطناع الرئيس الجديد، ويختار الوقت بدقّة، ويكون موسم صيف. حدث هذا في صيف 62 حين انقلبت قيادة الأركان على الحكومة المؤقتة، وحدث هذا في صيف 65 حين انقلبت جماعة وجدة على بن بلة وانفردت بالحكم، وحدث هذا في صيف 75 حين راجت شائعات مجنونة عن عزلة هواري بومدين ودنو نهايته، وحدث هذا في صيف 90 حين بدأ الانحدار المبرمج للملك الشاذلي بن جديد،

وحدث هذا في صيف 92 حين اغتيل محمد بوضياف على المباشر في التلفزيون، وحدث هذا في صيف 98 حين انفجرت سلسلة فضائح محمد بتشين لتدفع الرئيس زروال إلى مغادرة الرئاسة من الباب الضيّق، ويحدث الآن نفس الشيء مع الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في صيف لافح، متعفن، رديء، نجس، ملطخ بوسخات مسلسلٍ من الصفقات المشبوهة والفضائح الدنيئة لا أحد يدري مدى صحتها.

صيف بلادي حار دائما ومتعفن دائما، هو موسم اصطناع رجال الحكم وفبركة الرؤساء، لكن محترفي هذه الصناعة لا يريدون رئيسا كاملا تاما يتمتع بكامل حقوقه وصلاحياته، هم دائما يبحثون عن المرشح الأقل سوءا، والأقل سوءا لا يعني أنه نقيّ السمعة طاهر الذيل، الأقل سوءا يعني أن ماضي المرشح الافتراضي تشوبه شوائب، وأن حاضره مشتبه به، وأن مستقبله يتأرجح على كفّ عفريت، وحين يكون ماضي المرشح الافتراضي وحاضره ومستقبله مشكوك فيهم، آنذاك يقرر صنّاع الرؤساء أن يجعلوا منه ربع رئيس ويحتفظوا

لأنفسهم بالثلاثة أرباع الباقية، أو أن يجعلوا منه نصف رئيس ويأخذوا منه النصف الآخر، أو يجعلوا منه ثلاثة أرباع الرئيس ويكتفوا بالربع المتبقي، المهم أن الرئيس الافتراضي لن يكون رئيسا فعليا تاما كاملا.

صنّاع الرئيس في بلادي ينشطون في مواسم الصيف المتعفنة، ويعيشون بلا أسماء مثل الخفافيش في الظلام، لا أحد يعرف وجوههم، ولا أحد يعرف أسماءهم ولا أحد أحصى عددهم. هم لا يشبهون الأساقفة الكاثوليك الذين كانوا يصنعون الملوك والأمراء مثل الدمى في أوربا في القرون الوسطى. وهم لا يشبهون العسكر المتقاعدين من مافيا "كادونا" في شمال نيجريا. هم مختلفون، هم موجودون وغير موجودين... تأتت لهم حرفة اصطناع الرؤساء وذاقوا حلاوتها، لكنهم يجهلون شيئا واحدا، وهو أن في السياسة لا مكان للملك وصنّاع الملك في آن واحد، ولا مكان للرئيس وصنّاع الرئيس في الوقت نفسه.

فرائد سياسية:

قال توما الاكويني: "أفضل أنواع الحكم هو حكم رئيس واحد".

غسّال موتى القصر

تاريخ الشعوب الخاضعة للاستبداد مجرد سجّل من النكات.

"شامفور"

تروي كُتب التاريخ حادثة طريفة غريبة وقعت إبّان حكم الأتراك للجزائر، وتفصيل هذه الحادثة أنّ أهل الربط والحلّ اختلفوا في أمر تعيين الداي، ووصل الخلاف بينهم إلى طريق مسدود كما تقول الصحافة الآن، أو بالتعبير السياسي الحديث أن ميزان القوى لم يُرجح كفّة طرف من الأطراف المتصارعة. فاتفقوا على الخروج من القصر وتعيين أول شخص يصادفونه. وكانوا يعتقدون أنّ ذلك الشخص سيكون بالضرورة منتميا إلى طرف منهما. ولكم كانت دهشتهم كبيرة حين وجدوا أنفسهم وجها لوجه مع غسّال موتى القصر، هكذا عيّن عليّ الغسال دايا على الجزائر وحكمها سنة 1808.

وقد اشتهر هذا الداي بالغسّال لأنه كان يغسل ويكفّن موتى القصر قبل دفنهم. وتقول رواية أخرى أنّه سمّي بالغسّال لكثرة سفكه للدماء، هذا لا يهمّ، المهم أنّ الغسّال الذي حكم الجزائر، وكان رجلا ضعيف الشخصية، محدود الآفاق، لم يعرف في حياته إلا برودة الموتى ولون الجثث المتقع، واستغل الإنكشارِيونَ ضُعف الداي الجديد، وتسلّطوا عليه، وسخروه لتحقيق أطماعهم الجشعة ونزواتهم الطائشة، وفي تلك الفترة أبرم اتفاقا سريّا مع قيصر روسيا ضد الجزائر ، ثم أرسل في عهد علي الغسّال إلى الجزائر العقيد بوتان، وهو مهندس عسكري، وكلّف بمهمة استطلاعية لدراسة طوبوغرافية مدينة الجزائر وجمع المعلومات عن أحوال أهلها، وجاء العقيد بوتان إلى الجزائر وساعدته بعض العائلات اليهودية، خاصة عائلة بن زحوط الشهيرة في القيام بمهمته خير قيام من حيث دراسة المواقع والحصون، واستعمل فيلق الإنزال هذه المعلومات والتفاصيل أثناء تجهيز الحملة على الجزائر سنة 1830، وحين كان علي الغسّال دايا على الجزائر

كتب إليه نابليون مهددا "إن لم ترضني وتجب مطلبي، فإني أنزل أرضك بثمانين ألف جندي، وأهلك ملكك أنت وحاشيتك!"، وفي عهد عليّ الغسال أبعد الرئيس حميدو إلى الشام ، وفي عهده تفكك الجيش التركي في الجزائر ، وعجزت الخزينة عن تسديد رواتبه، فاستباح هذا الجيش مدينة الجزائر، وأتى على أخضرها ويابسها، وعاث فيها فسادا، وعمّت الفوضى والقلاقل، وسابت الأمور، وامتدت إلى علي الغسّال نفسه فقتل مشنوقا في 07 فيفري 1809 ولم تدم ولايته سوى أربعة أشهر، والمهمّ في كل هذه الحكاية الغريبة المضحكة المبكية هي أنّ الجزائر حكمها رجل كان يغسل موتى القصر ويكفنّهم قبل مواراتهم التراب، والمهمّ في كلّ هذه الحكاية الغريبة المضحكة المبكية هو أن أهل الربط والحل آنذاك راهنوا على مصير الجزائر بلعبة (خالص أو ضعف) quitte ou double وانتهت اللعبة بتعيين غسّال ومكفّن موتى القصر قبل مواراتهم التراب، والمهمّ في كلّ هذه الحكاية الغريبة المضحكة المبكية هو

أنّها ذكرتني بمثيلاتها في حاضرنا فما أشبه اليوم بالبارحة!.

حين مات بومدين جاء قاصدي مرباح وقال لأهل الربط والحلّ حين لم يحسم الصراع لطرف من الأطراف (دعونا نختار أكبركم سنّا وأعلاكم رتبة في العسكر) فطلع الشاذلي وحكمنا 13 سنة. وحين استقال الشاذلي أو أقيل تذكر أهل الربط والحل أن هناك رجلا اسمه (الطيّب الوطني) قابعا في مصنع للآجر في القنيطرة واستقدم الرجل الطيّب وحكم الرجل ولم يشنق كما شنق عليّ الغسّل لكن اغتيل على المباشر في التلفزيون. ثم اتفق أهل الربط والحلّ وقالوا كفانا من رئيس واحد وجعلوا على رأس الجزائر خماسيا يقوده علي كافي لأنه كان أكبرهم سنا وأقدمهم في الجهاد ويُحسن العربية، ثم اتضح أن الخمسة كُثر، وأن كرسي الرئاسة لا يتسع إلا لواحد ففكر خالد نزار واستقدم اليامين زروال من تقاعده المستحق في باتنة البعيدة، وقبل ذلك في سنة 1994 فكر أهل الربط والحلّ، أن يجعلوا من بوتفليقة رئيسا، بعد أن حرموه من ذلك سنة 1978، لكن الرجل كان متطلبّا، وقال لهم (أنا

أقبل السلطة كلّها لا بعضها...) ولم يلبوا له الطلب في المرة الأولى، واضطروا إلى ذلك في المرة الثانية، في سباق شارك فيه سبعة فرسان، لكن حين أعطيت الإشارة انطلق فارس واحد وحيد ، وحرن الفرسان الستّة. فاز الفارس بوتفليقة وظلّ في نفسه (شيء من حتى) إلى أن نظم سباق آخر في شكل استفتاء حول الوئام وكان له ما أراد، والعبرة من كل هذه الحكايات الغريبة المضحكة المبكية هو أنه كلّما عجز أهل الربط والحلّ على ترجيح كفة طرف من الأطراف يجلبون للجزائر دايا ليس من مركز السلطة لكن من أطرافها، والخوف كل الخوف أن يصبح تاريخنا تكرار لحكاية عليّ الغسّال... والخوف كل الخوف أن يتكرر التاريخ، وإذا تكرر التاريخ فهو يتكرر بصيغتين، مرة يتكرر بشكل تراجيدي، وتدفع الشعوب ثمن هذا التكرار ، ومرة أخرى بشكل كوميدي ، آنذاك يتحول تاريخ الشعوب الخاضعة إلى مجرّد سجل من النكات، والأمل كل الأمل أن يضع بوتفليقة حدا للتراجيديا والكوميديا على حدّ سواء.

يجوز لأيوب ما لا يجوز لغيره!

جادت علينا ريشة صديقي اللّدود الفنان أيوب، على شحّها وبخلها وكسلها، بصورة كاريكاتوريّة رائعة نشرت في الصفحة الأخيرة من جريدة "الخبر" يوم الاثنين 25 من شهر فيفري، الصّورة عميقة في دلالتها، متعدّدة في معانيها، جامعة لكلّ القراءات، مانعة لأيّ تأويل أحادي. ومن هنا طرافتها وغرابتها في آن واحد، الصّورة تنطوي على معان لفظيّة وغير لفظيّة جريئة، وتتضمّن لمسات ذكيّة تبعث على الانشراح والضحك، كما وسعت رغم ضيق مساحتها، عناصر الفكاهة والغرابة والخروج عن المألوف ما يجعلها نموذجا يحتذى به في فن الكاريكاتير في الجزائر، والكاريكاتير السّياسيّ بالدرجة الأولى.

العناصر الفنيّة التي وظّفها أيوب في رسمه بسيطة ومعبّرة، وهي العناصر نفسها التي يلجأ إليها الرّسامون الكاريكاتوريون من أجل تشويه الواقع والنّاس؛ الواقع في مظاهره اليوميّة العادية والتافهة، والنّاس في خَلقهم وخُلقهم، وحتى في أسرارهم الدفينة بغضّ النظر عن مراتبهم الاجتماعيّة ونفوذهم في المجتمع. أيوب لم يلجم هذه المرّة ريشته ولم يقمع خياله، بل أرخى لريشته العنان، وتركها تذهب إلى أبعد حدود المدى موظّفا رموزا واستعارات تنمّ عن قدرة فائقة على الارتقاء بالكاريكاتير السّياسيّ، كفن وكوسيلة تعبيريّة، إلى مصاف الفعل والتغيير.

في رسم أيوب تمثيل مضخّم للخصائص البدنيّة للأشخاص ولقسمات وجوههم ولباسهم وحتى سلوكهم، ومن الواضح أنّ الرّسام يتعمّد التّشويه لكن أعتقد أنّه يتعمّده ليس عامدا من أجل التّشويه لذاته، وإنّما قصد الاضحاك والسّخرية، وهذا بالطبع من حقه كفنان، خصوصا إذا اعتبرنا أنّ جوهر هذا الكاريكاتير منذ نشأته في القرن السّادس عشر في مدينة بولونيا

الإيطاليّة إلى اليوم، هو السّخريّة والسخريّة لا غير، ولا شكّ أنّ أيوب لم يخرج في رسمه هذا، وفي غيره من الرّسوم عن تلك التّقاليد التي جعلت فنّ الكاريكاتير يرتبط بالصّحافة، ويرتبط بالسّياسة من خلال توظيف أدوات السّخرية، والهجاء، والضحك، والقدح، والنقد اللاذع، لكن أيوب رسم صورته بروح جزائريّة، وتناول واقعا جزائريّا مرّا ومريرا، ليدفعنا إلى أن نضحك معه على هذا الواقع، وربما من أنفسنا في وقت افتقدنا فيه كلّ ما من شأنه أن يضحكنا ويسلينا وحتى يعزينا.

ريشة أيوب، وليس أيوب، لم تقصد من خلال لمساته الجريئة والذّكيّة إلى الإساءة والتّحقير، والشّتم، والقذف، وإنّما رسمت لنا صورة معتادة ومألوفة عندنا، النّاس كلّهم احتفلوا بعيد الأضحى، وغفروا ذنوب بعضهم البعض، وناس آخرون احتفلوا بتقسيم الريع ليذكروا بعضهم البعض بذنوبهم، الحفل طبعا ترأسه الرّئيس بمعيّة تابعه الأمين، ورئيس حكومته، والحضور هم صفوة طبقتنا السّياسيّة الموقرة، والريع أراده أيوب في شكل كبش، الرّئيس هو الذي ذبح وسلخ، وهو الذي يوزّع

بطبيعة الحال الأضحية، ولأنّه يعرف أنّ الطبقة السياسيّة طمّاعة، فقد أخذ على نفسه أن يكون عادلا منصفا، وأن يعطي لكلّ ذي حق حقّه، فلا يغمط حق أحد ولا يغضب أحدا. الرّئيس قال: لويزة تدّي الكرشة... فكان عادلا منصفا لأنّه يعرف أنّ الكرش كان دائما من نصيب النساء، وأنّ الكرش هو عيال الرّجال. ثم قال: سي رضا يدي المخ... فكان عادلا منصفا لأنّه يعرف أنّ رضا مالك هو مخ القوم، أي خيارهم، فزاده مخا حين لم يعد لأمره مخ. ثم قال: الراندو نعطولو الكرعين... وكان عادلا منصفا، فالرّئيس يعرف أنّ الكراع هي قوائم كلّ من يدبّ على الأرض. ثم قال: والنهضة نعطوها الريّة... وكان عادلا منصفا لأنّه يعرف انّ النهضة تعاني من ضيق في التّنفس بعد أن تشتت أعضاؤها بين جاب الله وآدمي، وهي بحاجة إلى تنفّس اصطناعيّ. ثم قال: وجاب الله نعطولو المصارن... بما فيهم من قاذورات وكان أيضا عادلا منصفا لأنّه قسّم بالقسطاس كرشة لويزة حنون ومصران الشيخ جاب الله، ولم يترك مصران جاب الله في كرشة لويزة حنون. ثم

قال: والدكتور صحولو الوحايد.. أي الخصيتين، وكان عادلا منصفا فهو بعد أن أعطى للدكتور وزارتين قرّر الآن أنّ من حق الدكتور سعدي الوحايد أي لا شيء.

ثم قال: والشّيخ.. يدي الراس... وكان عادلا منصفا.. فالرّئيس يعرف أنّ نحناح يحب الولائم والزرد.. وغاضب من قوله "نحن في الحكومة وليس في الحكم".. فأعطاه إذًا الرأس. أيوب حين جعل الرّئيس يقسّم الرّيع على طبقتنا السياسيّة لم يرسم في صورته الجنرالات لأنّهم هيئة نظاميّة فوق كلّ الشبهات. ونسي حسين آيت أحمد لأنّه يعرف أنّ آيت أحمد منفيّ في لوزان المخمليّة، والمنفيّ لا يشارك في الأضحية. ولم يرسم في الزردة الهاشمي شريف، فلا يجوز للأعزل الأوحد أن يضحي ولا تجوز فيه صدقة العيد. الرّئيس وزّع بالقسطاس وبالعدل والإنصاف كبش عيد الجزائر ولم يغمط أحدا حقه، وأعطى لكلّ ذي حق حقه. الكرشة للتروتسكيّة لويزة حنون، والمخ للسياسيّ المثقّف رضا مالك، والكرعين لرجل المهام القذرة أحمد أويحي، والرّية للمنشق آدمي، والمصارن للشيخ الشاب سعد عبد الله

جاب الله، والوحايد للدكتور الذي أخطأ شعبه سعيد سعدي، وأخيرا الراس للشيخ نحناح، ولم يترك رئيسنا العزيز لنفسه إلاّ الهيدورة يدّيها ويديرها بساط الرّيح، كناية عن رحالاته الطويلة، وتنقلاته اللامتناهية، وبساط الرّيح جميل ومريح.

أمّا بعد...

صديقي اللّدود أيوب.

هذه هي قراءتي لرسمك، وقد تكون مجرّد تأويل، فأنتم الرّسامون الكاريكاتوريون قوم من طينة خاصة، لذلك يجوز لكم مالا يجوز لغيركم، وأعترف لك أنّني وجدت دوما متعة لا تضاهيها متعة في وقاحتك، وفي صلافة علي ديلام، وفي الدعابة السّوداء للرّسام السّياسي البريطانيّ جيرالد سكارف، وفي الجرأة النادرة للفرنسي بلانتي، وفي طرفة بهجوري المصريّة، فأنتم الوحيدون الذين تعرفون كيف تسمون الأشياء بأسمائها، فلا شيء يشبه، كما قال غاستون بوتول، الشيء إلاّ رسمه الكاريكاتيريّ.

الدولة الإنكشارية

وأخيرا أتى عبد العزيز بوتفليقة ليعلن أمام الملأ وعلى رؤوس الأشهاد ان "دولتنا مريضة" وان رجالها صاروا عبئا عليها لست أزعم أنني أفقه أشياء كبيرة في نظرية الدولة، لكني أعرف ما يعرفه الإنسان العادي.

أعرف أن الدولة هي شكل من أشكال تنظيم المجتمع يؤسس للسلطة السياسة، وأن هذه السلطة تمارس على شعب في حدود إقليمية معيّنة، وأعرف أن للدولة مهاماً واضحة لا يمكنها أن تتنصل منها وإلا فقدت شرط وجودها وعلّة بقائها، أولها احتكار العنف الشرعي، وثانيها السيادة. وأعرف أيضا، أن الدولة الحديثة تتكون من عناصر ثلاثة هي إقليم ترابي تسهر على سيادته، وشعب تحكمه وتحميه، وسلطة تمارسها. وأعرف، أخيرا، أن تاريخ البشر شهد أنواعا من الدول السلطانية

والاستبدادية والثيوقراطية والدولة الديمقراطية في الأزمنة الحديثة. وهناك نوع آخر يخلط بين النظام "كطريقة للحكم" وبين "السلطة المكلفة بالسهر على تطبيق قوانين الجمهورية" وبين الدولة "كشكل يؤسس للسلطة السياسية". وهذا الشكل الهجين في الحقيقة لا هو دولة.. ولا هو نظام... ولا هو سلطة.. وإنما يمكن أن نسميه بـ"الإنكشارية"، وهو الشكل الذي آلت إليه الجزائر بعد أكثر من خمسين سنة من استعادة الاستقلال الوطني، وبعد أن فشلت النخب الحاكمة في بناء الدولة الوطنية الحديثة، وبدّدت حتى إرث الدولة الاستعمارية المتنازع حوله.

من خصائص "الإنكشارية" انفكاكها عن المجتمع. فهي لم تعد ملازمة له، كما لم يعد المجتمع ملازما لها، و"الإنكشارية" لا تحترم قيّم المواطنة وتعتبر الشعب رعايا، ولا تقيم وزنا للحداثة وتؤسس للانحطاط، وتدوس بالجزمة مبادئ الديمقراطية والحرية وترسخ طبائع الاستبداد. والإنكشارية تلغي المؤسسات وتعطل العمل بالقوانين وتصادر إرادة الناس، لتتحول في نهاية

المطاف إلى عصب متناحرة وعصبيات تجمع بين الرئاسة والمُلك وأعراش متصارعة على الريوع. هي الدولة.. وهي النظام.. وهي السلطة.. قال عنها المرحوم محمد بوضياف أنها مافيا مالية سياسية استولت على دواليب الدولة، فدفع ثمن قوله غاليا، ووصفها الرئيس عبد العزيز بوتفليقة بالمريضة وهو يحاول علاجها بأسباب دائها. هذه الإنكشارية تطلب الآن من رعاياها أن يقفوا معها ويدافعوا عنها ويذودوا عن حياضها، ولو "بالدبوس" والهراوات والسكاكين والنواجذ وما إلى ذلك من الأدوات البدائية. وكأنها تعرّضت لعدوان خارجي.

الذين شاهدوا رئيس الحكومة يُلهب حماس الرعايا في مهرجانات انتخابية شبيهة "بالزردات" السياسية في السبعينيات لم يفهموا هل كان رئيس الحكومة يدعوهم إلى الدفاع عن الدولة أم الدفاع عن النظام أم الدفاع عن السلطة، لم يفهموا لأن المفروض أن الدولة هي التي تدافع عن المواطنين وتصون حياتهم وتحمي ممتلكاتهم، فهذه هي علّة وجودها وشرط بقائها. رئيس

الحكومة معذور طبعا، فهو ابن هذه الدولة، وابن هذا النظام، وابن هذه السلطة. لذلك فهو حين يدعو إلى ضرورة الوقوف والدفاع عن الدولة، إنما هو يدعو إلى الوقوف إلى جانب النظام والسلطة. وهو حين يقول لا تتركوا الدولة تذل وتضعف، إنما يقصد لا تتركوا السلطة تذل وتضعف. وهو حين يدعو إلى حكم راشد يكون فيه الجميع من أجل الدولة والدولة من أجل الجميع، فإنما يفهم من كلامه كلكم للسلطة ولا شيء لكم. وهو حين يقول احترموا دولتكم تحترمكم الدولة، فإنما هو يدعو إلى احترام السلطة. وهو حين يدعو السرّاق إلى الرحيل بعيدا عن خزينة الدولة، فهو المسؤول عن ترحيليهم. وهو حين يقول إن الدولة لا تستطيع الحفاظ على مصداقيتها، إنما يقصد أن السلطة فقدت هذه المصداقية. هذه هي الإنكشارية الجديدة، كما عبّر عنها رئيس الحكومة بكل "صدقه ونزاهته واستقامته"، إنكشارية تخلط بين جوهر الدولة وطبيعة النظام ومهام السلطة. وهي نزعة ليست جديدة، وإنما هي كامنة في صلب وجوهر الدولة الجزائرية منذ

الاستقلال. فقد كان هواري بومدين يوهمنا ببناء دولة لا تزول بزوال الرجال، فذهب هو وزالت دولته وبقي نظامه برجاله.. "لا تزال سورة العصبية محفوظة فيهم.. وجانبهم مرهوبا والناس لهم مغلوبون"، كما قال ابن خلدون. ثم جاء بعده الشاذلي بن جديد وحاول إقناع رعايه بانتهاء عهد دولة البقرة الحلوب، ثم ذهب وبقي رجاله و"تحوّل حالهم بالمُلك إلى ترف"، كما يقول ابن خلدون. وأخيرا أتى عبد العزيز بوتفليقة ليعلن أمام الملأ وعلى رؤوس الأشهاد أن "دولتنا مريضة"، و"أن رجالها صاروا عيالا عليها"، كما يقول ابن خلدون.

الدولة الافتراضية

هذه الأيام كثُر عدد المترشحين لدخول العالم الافتراضي للدولة، فالوزراء الجدد يطالبون بالإقامة مع الدولة، لا على هامشها، والوزراء السابقون يشتكون أنهم أصيبوا بالداء الافتراضي، ويصعب عليهم ترك هذا العالم الحقيقي المفتوح، والبرلمانيون بدأوا يقدّمون طلبات السكن في إقامة الدولة، وبوتفليقة غاضب يريد إخراج الجميع، لأنه لا يقبل أن يزاحمه أحد في عالمه الافتراضي، وعلي بن فليس حائر يحاول إقناع المستوزرين الجدد والمنتخبين بالتعيين، أنه من الأفضل لهم أن يُقيموا مع الشعب الذي اختارهم، وليس مع الدولة التي تبنتهم.

يقال عن شيء إنه افتراضي virtuel حين يكون في حالة إمكان وكمون، أو حين يكون موجودا بالقوة وليس

بالفعل، كما يقول الفلاسفة. فالافتراضي إذن هو عكس الواقعي والحقيقي. ولأن دولتنا المريضة، كما وصفها الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، ليست موجودة بالفعل إنما بالقوة، فهي إذن دولة افتراضية، نخرها الفساد حتى النخاع، وتجمدت أنساغ التجديد في أوصالها، وتقطعت سبل التواصل بينها وبين رعاياها.

ورجال دولتنا المريضة هم أيضا افتراضيون، صاروا "عيالا عليها وتحول حالهم بالمُلك والترف"، حسب التعبير الخلدوني، رجال دولة يتعاطون "البوليتيك"، كما يتعاطى المدمنون الحشيش، ويتوهمون أنهم يمارسون السياسة بمعناها النبيل، رجال افتراضيون يعيشون في عالم وهمي لا وجود له إلا في أذهانهم وخيالهم. هذا العالم هو، أيضا، عالم افتراضي، لكنه موجود بالفعل وليس بالقوة، موجود في سيدي فرج وموريتي، في رقعة جغرافية لا تتعدى عشرة كيلومترات مربعة، هناك تقيم دولتنا الافتراضية الموقرة، وهناك يقطن رجال دولتنا الافتراضيون المبجلون.

لكن الدولة الافتراضية مسؤولة عن رجالها الافتراضيين، القديم منهم والجديد، فهي بعد أن أطعمتهم من جوع، يجب عليها أن تؤمنهم من خوف، فلا بأس أن يحصد الإرهاب رؤوس الرعايا الأبرياء، لكن من حق الافتراضيين على الدولة الحماية والوقاية والرعاية، حتى ولو حشرتهم في سيدي فرج وموريتي وحشدهم في محتشد الدولة مع من حشدت من قبل من مسؤولين سامين وعسكر ووزراء وإطارات ومستشارين ومخبرين وقوّاد وحواريين، حفاظا على أمنهم وسلامتهم.

إقامة الدولة الآن محجوزة كلها، وحالها تغير الآن تماما، قبل الإرهاب كانت هذه المنطقة مفخرة للجزائر، واحتضنت أعظم المؤتمرات والملتقيات الدولية، وأقامت بها شخصيات عالمية معروفة، وكانت بؤرة لأفكار رائدة صنعت الأحداث والرجال، كانت قطعة معمارية نادرة تتربع على رمال ذهبية وتعانق آفاقا لازوردية لا متناهية.

الآن وبعد أن أقام بها السياسيون الافتراضيون، تغير في رمشة عين المنظر والديكور.. وطال ذلك المعمار والطبيعة ونوعية البشر المقيمين بالمنطقة وأنماط

سلوكهم. انتشرت بنادي الصنوبر وموريتي مظاهر لم تكن لتخطر على البال قبل بضع سنوات، وتحول هذا الفردوس الضائع إلى منطقة محرمة على الشعب، تنسج فيها علاقات مريبة، وتبرم في ربوعها صفقات مشبوهة، وتقام في زواياها المنمقة ليال حمراء.. وحتى الهواء تغير، فأصبح يعبق بروائح كريهة، هي خليط من البصل والثوم والبخور، بدل نداوة البحر وطراوته وحفيف أجنحة النوارس البيضاء، وانتشرت السرقة وغزت الأسيجة الحديدية الفيلات الفاخرة، بعد قدوم أقوام جديدة إلى هذه المنطقة جلبت معها عاداتها القديمة وأنماط معيشتها البالية، باختصار.. تم ترييف هذه المنطقة وضاع هذا الفردوس.

في محتشد الدولة تقيم مخلوقات بشرية متنافرة، متناقضة ومتنابذة، لا يدري المرء كيف جمعتها العناية الإلهية.

اللائكي يجاور الإسلامي..

والاستئصالي يساكن الأصولي ..

والمتمدن يحاذي الريفي..

والمثقف اليساري يعاشر المزهو بجهله..

وخادم الدولة يقابل هادمها..

والانتقالي المزور يجالس منتخب الشعب

والكل يحافظ على هذه الجيرة، فالجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق. في محتشد الدولة الافتراضية، أصبح حسن الجوار عقيدة الجميع، انتفت الخلافات، وزالت التناقضات، ولم يعد يجمع بين المقيمين إلا الضجر والقنوط والعزلة. وفي صقيع هذه العزلة ظهرت طبقة سياسية جديدة تتوهم خدمة الدولة. لكن هدفها اقتسام الريوع.. طبقة تشبه النومنكلاتورات القديمة في أوربا الشرقية، تتمتع بسلطة لا حد لها، لكن هذه النومنكلاتورات تخجل من نفسها، وترفض أن يتعرف الناس عليها، تتهرب من وضعها، تعيش في الظلام وتخشى ضوء النهار، تخفي مزاياها وتناقض الأفكار التي تدعي تلقينها للشعب، ومن هنا خطرُها وهشاشتها في آن واحد، وهي خطيرة لأنها تكره الشفافية وتجزع من النقد.

وبصراحة.. أنا أشفق على هذه الحشود الافتراضية المحتشدة في محتشد الدولة الافتراضية، ولا أغبطها على

ضجرها وقنوطها وصقيع عزلتها، لأن التاريخ سيكتب يوما أن جزائر العشرية الأخيرة من القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين، كانت منقسمة إلى من يعيش في محتشد الدولة الافتراضية ومن يعيش في دولة المحتشد.

فرائد السياسة

قال الدوق دي ليفيس: "الأمير الماهر في قيادة الرجال يستغل عيوبهم من أجل أن يقمع نزواتهم".

بوتفليقة الأوروبي

فحين تقول لنا أوربا أنها الحق نفهم منها القوة.. وحين تمتدح لنا روحانيتها تكشف فيها قبح ماديتها.. وحين تزهو برزانتها نرى فيها غلوّها وغطرستها.. وحين تحاول إقناعنا بعقلانيتها تفاجأ بخرافاتها.. هذا الأسبوع اختطفت الرئيس عبد العزيز بوتفليقة أوربا من جوبيتر JUPITER. إله السماء، وسيّد الآلهة، وحافظ النظام والعدل، وحامي المستضعفين فوق الأرض.

وأوربا هذه، كما تقول الأسطورة، هي ابنة أشهر ملوك فينيقيا تحوّلت إلى عروس من عرائس البحر، وكانت فاتنة جذّابة ذات بسمة ساحرة، لم يصمد أمام مفاتنها حتى الإله جوبيتر، فاختطفها وأخفاها في ملكوته بالفضاء الأعلى، وظل جوبيتر يسكن السماء ويحرس أوربا، ومن هناك يجمع السحب ويرسل المطر والبرق

ويحرك الرعود وينزل الصواعق على كل من تسوّل له نفسه الاقتراب من محروسته أوربا، إلى أن جاء بوتفليقة هذا الأسبوع وانتشلها منه بعد أن راودها عن نفسها ثلاث سنوات كاملة. من نادي كرونس مونتانا مرورا بباريس وصولا إلى بروكسيل، نجح رئيسنا في ترويض أوربا العجوز، لكن بعد أن ظهرت التجاعيد على وجهها وفقدت بريقها وألقها.

المهم أن بوتفليقة حرّرها من أسر سيّد الآلهة بأحضانه المرحبة وقبلاته الحارة وابتسامته العريضة وفصاحة لغة فولتير على لسانه. ورغم ما عُرف عنه من اعتدال ورصانة واعتزاز بالنفس، لم يتورع في إبراز محاسنها وإصباغ أجمل الصفات عليها. وقل فيها من المديح والتقريظ والتمجيد ما تحسدها عليها الحسناوات. في بروكسيل الهادئة بدا الرئيس في عنفوان انتصاره وزهوه، وتكلم كعادته بلغة غير لغة بلاده، ودافع عن نفسه ضد من يتهمه بالتغريب. وفي بروكسيل اكتشف أنه أوروبي حتى النخاع، وغبط جاليتنا هناك على انتمائها المزدوج، وتمنى من صميم قلبه لو كان مثلهم يحمل الجنسية المزدوجة. في بروكسيل كشف لنا، وللأوربيين أيضا عن جغرافية جديدة متحركة لقارتهم

العجوز، فإذا كان ديغول قد دافع عن أوروبا مستقلة ممتدة من المحيط الأطلسي إلى جبال الأورال، فإن بوتفليقة يقول لهم، ساخرا بالطبع، إن الجزائر لو لم تستقل لكانت اليوم عضوا كامل الحقوق في الاتحاد الأوربي منذ تأسيسه سنة 1957، ولهذا فهي تستحق من أوربا أن تنظر إليها بعين الحب وأن تغازلها وتلاعبها بلطف، وهكذا تحركت جغرافية أوربا، بفعل سحر الرئيس، وأصبحت ممتدة من الأطلسي إلى الأورال، ومن دينكرك إلى تمنراست. عقد بوتفليقة قرانه مع العجوز أوربا بعقد شراكة طال انتظاره، ولم يعد من بروكسيل كما علد من باريس قبل عام، خالي الوفاض فارغ اليدين، علد بعد أن وضع الجزائر أمام مصيرها الحاسم وقدرها المحتوم، بعد أن قدّم عربون الوفاء بتنظيم سنة الجزائر في فرنسا عام 2003 والالتحاق بحظيرة الفرنكوفونية، ودخول منطقة التبادل الأوربية الحرّة والتعاون مع الناتو في مجال محاربة الإرهاب الدولي... والبقية ستأتي... قران بوتفليقة مع أوربا العجوز آثار غيرة البعض وحفيظة البعض الآخر، فحاول الحسّاد إفساد حفل الرئيس وفرحة الجزائر. العروش تظاهروا في بروكسيل ورفعوا في وجه الرئيس والمجموعة الأوربية شعار "أولاش

سماح، أولاش سماح"، لكن أوربا المزهوة بنفسها المحافظة على مصالحها لم تلتفت إليهم، وتجاهلتهم، وغضّت الطرف عن حمايتها لحقوق الأقليّات ودفاعها عن الخصوصيات. فأوربا اليوم كسرت الحدود والسدود ولا يُعقل أن تتعاون مع تنظيمات بدائية سابقة على مفهوم الدولة، وكمشة من المثقفين من أمثال علي الهواري وجون فرانسوا جيز وبيير فيدال ناكي، اعتادت على توقيع العرائض وجعلت من مآسي الجزائر سجلا تجاريا مربحا، لم تستطع أن تحرك ضمير الأوربي بحديثها عن "الحرب القذرة" و"الاقتصاد المنكوب" و"كتائب الموت" و"إرهاب الدولة"، فبعد 11 سبتمبر "انتهى اللعب"، ولم تعد أوربا تنافح، كسابق عهدها، عن حقوق الإنسان وعن الديمقراطية.

"أوروبية" بوتفليقة أغضبت الشيخ محفوظ نحناح، الذي عاد إلى ترديد لازمته القديمة "نحن في الحكومة، ولسنا في الحكم" التي حفظناها عن ظهر قلب، والتي أصبحت عنده، مثل البسملة والحمدلة والحوقلة، وعلى نغمات هذه اللازمة، اعتبر اتفاق الشراكة غير واضح المعالم، ويفتقد إلى الشفافية. ووصف المساندين له بالمنبطحين،

أي أن الرّئيس، وهو راعي الاتفاق، إذا فسّرنا كلام نحناح، انبطح أمام أوربا العجوز، ونفس الشيء قاله نحن مع الاتفاق مع حلف الناتو، حين وصف المصفقين له بالمطبعين اليهود.

لا أحد يعرف تفاصيل عقد الشراكة مع الاتحاد الأوربي، ولا أحد يدري ماذا جرى مع قيادة الناتو، لأن بوتفليقة يريد أن يستحوذ على العجوز أوربا بعد أن اختطفها من الإله الأعلى جوبيتر، الرئيس جعل الجغرافيا تتحرك، لكن التاريخ ثابت، كما قلت، لأن أوربا، أو "عقل العالم" كما يسميها بول فاليري، هي عجوز غريبة الأطوار... متقلبة.. منافقة.. ووراءها تاريخ دموي مليء بالمآسي والآلام والدماء.

فحين تقول لنا أوربا أنها الحق نفهم منها القوة.. وحين تمتدح لنا روحانيتها تكشف فيه قبح ماديتها.. وحين تزهو برزانتها نرى فيها غلوها وغطرستها.. وحين تحاول إقناعنا بعقلانيتها نتفاجأ بخرافاتها...

بوتفليقة الفرانكوفوني

الجزائر لم تغنم من فرنسا التي تتزعم الفضاء الفرانكوفوني سوى تحويل 400 مليون فرنك من ديونها إلى استثمارات وجائزة الفرانكوفونية للآداب التي نالها محمد ديب سنة 1994، رغم إنها ثاني دولة فرانكوفونية في العالم بعد فرنسا.

بموافقته على حضور الجزائر قمة الدول الأعضاء في منتدى الفرانكوفونية يكون الرئيس عبد العزيز بوتفليقة قد استعدى على نفسه الجميع، أو جعل الجميع أعداء له. وهو الآن يعطي الانطباع بأنه يحارب من أجل أن يظفر بكل شيء أو يخسر كل شيء، يحتقر الشعب، والشعب يائس من وعوده، يناصب العداء للصحافيين ويتهمهم بالخيانة، وهم لا يتوقفون عن انتقاده والطعن في ذاته العليا. يشتم العلماء ويتهمهم

بمؤازرة الإرهاب، وهم يصفقون ببلادة، يستفز العروش، والعروش يرفعون "أولاش السماح أولاش". يسخر مما تبقى من الديمقراطيين، وهم يطالبون برحيله. يدغدغ مشاعر الإسلاميين، وهم يشككون في نواياه. يمتدح الارهابي حطاب ويسميه "السيد"، وحطاب لا يتوقف عن التقتيل.

وها هو الآن بحضوره في بيروت فعاليات الفرانكوفونية يفتح جبهة ساخنة تكرس التنابذ والتخاصم في المجتمع حول قضية مكانة اللغة والثقافة الفرنسية بالجزائر. بوتفليقة فتح الباب على مصراعيه أمام دعاة عودة الجزائر إلى الفضاء الفرانكوفوني، وأعاد إلى السطح نفس الجدل الذي أثاره ليوبولد سيدار سنقور والحبيب بورقيبة في الستينيات في السنغال وتونس. وفي عهده أصبحت اللغة الفرنسية تجري على كل لسان السياسيين وغزت وسائل الإعلام العمومية، وانتقلت هذه العدوى حتى إلى السياسي المعرب، فأصبح يرطن بالفرنسية محاولا تجاوز عقدة المعرَب، والحال أن هذه العقدة كان أول من دعا إلى تجاوزها الرئيس نفسه.

فحين صعد إلى المرادية قال للجزائريين "تفتحوا على لغات الأقوام الأخرى"، ثم جسد تفتحه بالحديث باللغة الفرنسية في كل المناسبات وفي غير مناسبة. وخطب بالفرنسية أكثر مما خطب بالعربية، بل إنه أحيانا كان يتفنن في إخراج المحسنات اللفظية للغة الفرنسية، إلى درجة أثارت حفيظة خصومه الذين اتهموه بخرق الدستور، وهو حاميه، وتجاهل ثوابت الأمة، وهو راعيها، في حين رأى آخرون أنه لم يقم سوى بتكسير طابو من طابوهات الجزائريين. وما أكثرها! بوتفليقة تجاهل الذين حذروه من إدراج الجزائرية في الفضاء الفرانكوفوني، ودخل في لعبة أداتها الفصاحة الفرنسية وهدفها إغراء فرنسا في مجال التربية والثقافة، ورهانها مصالح اقتصادية كبرى كان يمني نفسه بها للخروج من الأزمة التي تتخبط فيها البلاد. وقد بدا واضحا وصريحا بقوله لوزير خارجية فرنسا "أن الجزائر بلد لا ينتمي إلى الفرانكوفونية، لكن ليس من حقنا التزام موقف جامد من اللغة الفرنسية التي علمتنا الكثير وفتحت لنا نافذة على الثقافة الفرنسية".

الشيء الذي يخشاه الجزائريون هو الفرانكوفونية كنظام سياسي منحرف، وكتعبير عن إرادة الهيمنة لدى بعض الدوائر الكولونيالية السابقة، وقد تجلت هذه النزعة المهيمنة في السنوات الأخيرة من خلال دعوة زعماء الفرانكوفونية إلى توسيع الفضاء الفرانكوفوني. وبالفعل أصبح هذا الفضاء يضم أكثر من 50 دولة، بعد أن انضمت إليه الفيتنام واللاووس والكومبودج، وحتى دول من أوربا الشرقية مثل رومانيا وبلغاريا وملدافيا. ورفع هذا الفضاء شعار "الفرانكوفونية الحيّة والفعالة"، وأصبح يعمل من خلال وكالات التعاون ومؤسسات لتجسيد برامج ملموسة في الميادين التالية:

1. التربية: الهدف هو إقامة مدارس مزدوجة اللغة، وإنشاء فروع فرانكوفونية لإدراج الفرنسية في التعليم العالي ومراكز البحث، ومهمتها تكوين نخب المستقبل.

2. المحيط الثقافي: أو ما يعرف بـ "الفرنسية في الشارع"، أي تعميم الفرنسية في وسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة وفي الإشهار، وخلق أدوات

باللغة الفرنسية في كل المستويات بحيث تتحول الفرنسية إلى لغة للثقافة والاتصال.

3. الاقتصاد: وقد تبلور هذا المحور منذ قمة "الكيبيك" في عام 1978، حين طرح زعماء الفرانكوفونية فكرة أن الفرانكوفونية لا مستقبل لها بدون اقتصاد. وهذا الرهان يمثل اليوم أكثر من 550 مليار فرنك فرنسي و120 مليون مستهلك للبضائع والقيّم الثقافية.

هذه الرهانات هي ما يسمى بالفرانكوفونية الحيّة والفعالة، التي اقترنت هذه الفترة الأخيرة بإرادة معلنة لتحويل الفضاء الفرانكوفوني إلى مجموعة سياسية لمواجهة سيرورة "الأمركة" في الساحة الدولية.

وهي الرهانات التي أراد بوتفليقة أن يجني ثمارها من خلال إعادة بعث العلاقات الجزائرية الفرنسية، ومن خلال حديثه باللغة الفرنسية، ومن خلال إطرائه على فضائل الثقافة الفرنسية ومن خلال مشاركته في قمة الفرانكوفونية الحالية.

الجزائريون مثل بوتفليقة يحبون اللغة الفرنسية الجميلة، وهم مثل بوتفليقة لا يناصبون العداء للثقافة الفرنسية،

وهم مثله يعتبرون كل ما ورثوه عن فرنسا في مجال اللغة والثقافة "غنيمة الحرب".

لكن الجزائر لم تغنم من فرنسا التي تتزعم الفضاء الفرانكوفوني سوى تحويل 400 مليون فرنك من ديونها إلى استثمارات وجائزة الفرانكوفونية للآداب التي نالها محمد ديب سنة 1994، رغم أنها ثاني دولة فرانكوفونية في العالم بعد فرنسا.

جمهوريتنا غير الفاضلة

هذه هي أنواع الحُكم في جمهوريتنا غير الفاضلة .

- حُكم فردي نرجسي أناني متعجرف
- وحُكم طيموقراطي مُولع بالمجد والسلطان. هو "الشجاعة خرجت عن طور العقل".
- وحُكم أوليغارشي "شره للمال، خُلوّ من كل عاطفة شريفة"
- وحُكم ديموقراطي "متقلّب مع الأهواء ليس لحياته قاعدة، وليس فيها إكراه، يتوهم خيره في الحرية المسرفة، فيقتله هذا الإسراف".

جمهوريتنا فريدة من نوعها، متفرّدة في وجوهرها، متميّزة في تنظيم وترتيب أمور كائناتها ومكوّناتها ومكنوناتها. فهي لا تشبه الجمهوريات الفاضلة والمدن الخيّرة واليوتوبيتات الأسطورية، التي حلم بها الفلاسفة

والعلماء والأدباء، ونسجوا لنا بخيالهم المجنّح حكايات عجيبة عن حكمها الراشد وحكامها الفضلاء وعدلها المثالي، وهي لا تشبه بمحاسنها وعيوبها كل أنواع الجمهوريات التي ظهرت قديما في التاريخ الواقعي للإنسانية. وهي لا تشبه جمهوريات الموز التي عرفتها أمريكا اللاتينية، والتي لا يدري المرء من هو حاكمها من هو المحكوم فيها، وماذا وكيف يحكم.. هي ليست مدينة أفلاطون الفاضلة، بما فيها من نظام إلهي على وجه التمام والكمال، وهي ليست جزيرة "حي بن يقظان"، التي بحث فيها ابن طفيل عن إدراكه العرفاني لماهية الوجود والموجودات، وهي مختلفة عن يوتوبيات عصر النهضة المثلى، كما في "مدينة الله" للقديس أوغسطين..وهي أيضا مختلفة عن "اليوتوبيا الحديثة" التي رسمها الكاتب الانجليزي ويلز، وهي بعيدة كل البعد عن جمهوريات "الخير العام" و"السعادة الحديثة"، كما كنا نتخيّلها في خطابات الشيوعيين في أوروبا الشرقية....

جمهوريتنا ليست جنّة فوق الأرض، وليست جحيما في معارج السماء. جمهوريتنا أسطورة من نوع خاص، هي مُمكنة ومُستحيلة، واقعية وخيالية، موجودة وافتراضية، خليط من كلّ هذا. جمهوريتنا أسسّت سلطتها السياسية على أشكال هجينة من التنظيم. أحيانا تتخذ الشكل السلطاني، وأحيانا أخرى الشكل الاستبدادي، تكون طورا تيوقراطية، وطورا آخر ديمقراطية، اختلطت فيها كل شيء. اختلط فيها النظام، كطريقة للحكم، بالسلطة المكلّفة بالسهر على تطبيق القوانين، واختلطت السلطة بالدولة، فلم يعد فيها مكان لا للنظام.... ولا للسلطة... ولا للدولة.

جمهوريتنا غير الفاضلة بها كل أنواع الحكم، التي تحدث عنها أفلاطون في جمهوريته الفاضلة. وأنواع الحكم هذه وجدت نفسها، بقدرة قادر، ضد كل نواميس الفكر السياسي، متعايشة، متآلفة، متوائمة، متجانسة، متجاورة، متساكنة، وكأنّ لا صراع بينها ولا نزاع.

حكم فردي متسلّط يتطلع إلى استكمال ربعه الناقص، ويسعى إلى تحويل الجمهورية إلى عرش ملكي بلا تاج،

يحتقر الدستور، ويدوس على المؤسسات في سبيل ارتقائه الجنوني نحو المجد.

والربع الآخر من الحكم في يد العسكر، الذين يتغلبون كلّما اضطرب النظام وعمّت الفتنة، فالقوة بأيديهم يوظفونها لمنفعتهم الذاتية، وما تبقى من أرباع الحكم في جيوب أصحاب المال والأعمال، فيُؤثرون العدل بينهم ويتقاسمون السلطان، ويتحولون، كما يقول أفلاطون، إلى حكم "**طيموقراطي**" أو حكومة الطمّاعين.

وحين تتفكك وحدة الأمة، ويدبّ الفساد في أوصالها تصبح أمتين، أمّة الفقراء وأمّة الأغنياء، فيكثُر الانتهازيون والوصوليون وأتباع الشهوات الدينية، ويصبح الحكم أوليغارشيا أو حكومة الأغنياء، ويتفشى الفقر، وتعمّ الفاقة، ويكثُر الشغب، ويحاول العوّام أن يقلبوا نظام الحكم، ويصبح الشارع هو الحكومة المضادة، فيُستباح كل شيء باسم شعار الحرية والمساواة المطلقة... وهذا هو حكم الديمقراطية، أو حكومة الكثرة، كما يسميه أفلاطون.

هذه هي أنواع الحُكم في جمهوريتنا غير الفاضلة:

- حُكم فردي نرجسي أناني متعجرف

- وحُكم طيموقراطي مولع بالمجد والسلطان، هو "الشجاعة خرجت عن طور العقل"

- وحُكم أوليغارشي "شره للمال، خُلوّ من كل عاطفة شريفة"

- حُكم ديموقراطي متقلّب مع الهواء، ليس لحياته قاعدة، وليس فيها إكراه يتوهم خيره في الحرية المُسرفة، فيقتله هذا الإسراف. وهي كلّها أنواع من الحُكم وأصناف من الحكومات دان لها المُلك بالطغيان والتعسف والظلم والاستبداد، وتقود الشعب، حتما، إلى الشقاء العام في جمهورية غير فاضلة.

فرائد السياسة

قال جوزيف جوبير: الجمهورية هي أفضل علاج لأمراض الملكيّة، والملكيّة هي العلاج الوحيد لأمراض الجمهورية.

قال ماكيافيلي: الجمهوريات المُثلى هي التي تكون فيها الدولة غنية والمواطن فقير.

حكومة بلا جرائد... أم جرائد بلا حكومة؟

لو فُوّض الأمر لي لأقرّر بين أن تكون لي حكومة بلا جرائد، أو جرائد بلا حكومة، فإنني لن أتردّد لحظة في اختيار جرائد بلا حكومة

توماس جفرسون

كتبتُ إلى فخامتكم ذات مرّة رسالة مُغلقة نشرتها في الصحافة أشتكي فيها إليكم من شكاوى المواطنين إليكم ورسائلهم المفتوحة المفضوحة.. وقلت في ختام رسالتي: "إني لست في مقام يسمح لي بإسداء النصح لكم، لكني لو كنت جالسا فوق كرسيكم الرفيع لعزلت الوزراء والنواب والولاة ورؤساء الدوائر وشيوخ البلديات والمديرين المركزيين، الذين لا يسمعون إلى المواطنين، وخلعت على نفسي لقب "المستبد المستنير"، وحكمت الرعيّة وحدي، وأغلقت كل صناديق البريد في البلاد ومنعت إصدار الطوابع البريدية والأظرفة، وغلقت

مصانع الورق، وفرّقت الكتّاب العموميين، الذين اغتنوا على ظهر المواطنين، ثم بعد ذلك أمرت بحبس كل من يتجرأ على إقلاق راحتي بشكوى، سواء كانت مفتوحة أو مغلقة، وجعلت الجميع يشكون، كما يقول المثل، إلى غير مُصمت، فالورق الذي تُكتب عليه هذه الرسائل المفتوحة قد يكون صبورا، لكن من حقّكم كرئيس يقرأ هذه الرسائل أن تفقدوا صبركم".

واليوم، إدراكا مني لما ينتظرني كصحفي، قرّرت أن أكتب إليكم، كما يفعل كل المواطنين، رسالة مفتوحة، وليست مغلقة.

فخامة الرئيس..

سمعتكم مرّة تبدون إعجابكم بالرئيس الأمريكي توماس جيفرسون، ولم استغرب ذلك منكم، فكل السياسيين المشهورين في العالم مفتونين بهذه الشخصية الفذّة وبإسهامها الاستثنائي في بناء الولايات المتحدة الأمريكية، لم أستغرب لأني أعرف مدى انبهاركم بلغة وأسلوب إعلان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية، الذي حرّره توماس جيفرسون، وتبنيكم لأفكاره في الحق الطبيعي والتنوير وإيمانه بالرقيّ الإنساني، لكني لا

أعتقد أنكم تشاطرون توماس جيفرسون أفكاره في حريّة الصحافة والتعبير، التي عبّر عنها في رسالته إلى صديقه كارينغتون سنة 1787.

- لو أنكم تحبون توماس جيفرسون لاقتنعتم كما اقتنع هو من أن العقل السليم للناس، هو دوما أفضل جيش، ولَقلتم ما قال من أن الناس يمكن أن ينحرفوا مؤقتا عن جادة الصوّاب، لكنهم سرعان ما يصححون أخطاءهم.
- لو كنتم معجبين بتوماس جيفرسون لجعلتم، كما فعل هو، من الشعب الرقيب الوحيد على من يحكمونه، وقلتم ما قاله من أن معاقبة أخطاء الناس بقسوة تعني إلغاء الضمان الوحيد للحريات العامة.
- لو كنتم منبهرين بتوماس جفرسون، لفعلتم ما فعله هو، وهو إعلام الشعب إعلاما تاما بشؤون الأمّة، ولسهرتم، كما سهر هو، على أن تنتشر الجرائد في صفوف الشعب الأمّي.
- لو كنتم مفتونين يتوماس جيفرسون لاعتبرتم، كما أعتبر هو، أن قاعدة الحكم هي رأي الشعب، وأن هدفكم الأول هو الحفاظ على هذا الحق.

• لو تبنيتم أفكار توماس جفرسون لقلتم، ما قاله هو قبل قرنين، لو فوّض الأمر لي لأقرر بين أن تكون لي حكومة بلا جرائد، أو جرائد بلا حكومة، فإني لن أتردد لحظة في اختيار جرائد بلا حكومة.

• لو كنتم تشاطرون آراء جفرسون في الصحافة وحريّة التعبير، لرافعتم، كما رافع، هو عن حرية النشر وحرية ممارسة الأشكال الأخرى للاتصال وحق النقد باسم الشعب بوصفه "الرقيب الوحيد على من يحكمونه".

فخامة الرئيس..

لست في مقام يسمح لي بإسداء النصح لكم، لكني لو كنت جالسا فوق كرسيكم الرفيع، لأقسمت أني لن أرفع دعوى على صحفي أو مواطن، ولجمّدت القانون المشؤوم لرجل المهام القذرة، ولعزلت الحكومة وأبقيت على الجرائد، كما فعل توماس جيفرسون قبل قرنين، لأثبت للعالم أني أنا عبد العزيز بوتفليقة معجب بتوماس جيفرسون وإيمانه بالتنوير والرقي الإنساني ودفاعه المستميت عن الصحافة وحريّة التعبير...

والسلام.

بيان انقلاب

كان في نيّتي أنْ لا أكتب هذا الأسبوع، حزنا على ضحايا بلدي المسكين ووضعه المأساوي، لكني عدلت عن هذه الفكرة لأن العقد الأخلاقي الذي يربطني بالقارئ يمنعني من ذلك. فترك صفحة بيضاء عارية، كما يفعل أحيانا بعض زملائي من كتّاب المقالات، ليس حلاّ لائقا للتعبير عن الصمت والحزن والاحتجاج. لكني احترت في الأمر، ماذا أفعل وصفحات الأسبوعية ستُرسل إلى المطبعة بعد ساعات قليلة؟ وفجأةً خطرت ببالي أن أنشر بيانا انقلابيا من مثل تلك البيانات التي يذيعها الديكتاتوريون على أمواج الأثير، ويقرؤونها في تلفزيوناتهم المترهلة، ثم ينشرونها في اليوم الموالي في جرائدهم التي لا يقرأها أحد. بحثت في أرشيفي الخاص، فلم أجد سوى "بيان مجلس الثورة"، الذي طلع به

العقيد هواري بومدين على العالم معلنا انقلابه، هو وجماعة وجدة، على الرئيس أحمد بن بلة.

قلت في نفسي إن هذا البيان يُمكن أن يصدر في طبعة مزيلة ومنقّحة في هذه الصفحة، ويكفيني شرَ مغالبتي لبياضها. فكرة طريفة يمكن أن تُجرّب. لكن اعترضتني صعوبة أولى، وهي أني لا أملك سوى النسخة الفرنسية من البيان، وأنا أكتب بلغتي العربية الشقيّة، ثم تغاضيت عن هذا الأمر بعد أن تفطنت إلى أن كل البيانات، وما أكثرها، التي حرّرها السياسيون عندنا، كُتبت بلغة فرنسية جميلة، ثم تُرجمت إلى عربية ركيكة، بدءا ببيان أول نوفمبر، مرورا ببرنامج طرابلس وميثاق الجزائر والميثاق الوطني، وانتهاء باستقالة الشاذلي بن جديد، فلا بأس إذن أن اعتمد الأصل بدل الفرع، لكن قبل أن أترك القارئ مع البيان، ينبغي أن أوضح له بعض الأشياء، ومنها سياق البيان وسببه، ومنها أسلوبه ونبرته.

البيان جاء بعد تنحية أحمد بن بلة، لوزير الخارجية الشاب عبد العزيز بوتفليقة، وهدفه تبرير انقلاب سميّ

"تصحيح ثوري". البيان حرَر بصيّغ مختلفة وعديدة، وسبّب ذلك غموضه المتناقض بين لغته وأسلوبه ونبرته العامة، لأنه كان يعكس اختلافات وتناقضات الانقلابيين. ولأن البيان تُرجم بشكل لا يرضي الانقلابيين، فمن الأفضل اعتماد النسخة الأصلية، وقبل ذلك أنصح القارئ أن يحذف منه، ولا بأس أن أقوم أنا بذلك بدله، بحذف التواريخ مثل: "19 جوان 1965"، ويحذف الأسماء مثل بن بلة وتوقيع هواري بومدين في أسفله، ويحذف مجلس الثورة والحزب والاشتراكية وشعوب آسيا وإفريقيا، ليجد نفسه أمام بيان وكأنه كُتب اليوم، هذه بعض المقتطفات:

- البلد تتنازعه دسائس تُحاك في الظلام وتعبث بمصيره صدامات اتجاهات وعصب تُبعث كل مرة خدمة لحيلة قديمة للحكم: فرّق تسد.

- الحسابات الدنيئة والنرجسية السياسية، الحب المرضي للسلطة، تتجسد من خلال التصفية المُمنهجة لإطارات البلد والمحاولة الإجرامية لتشويه سمعة المجاهدين والمقاومين.

- الجيش الوطني الشعبي، سليل جيش التحرير المجيد، لا يسمح، مهما كانت المناورات، بقطع صلته بالشعب الذي انبثق منه، ومنه يستمد قوته وعلّة وجوده.
- حان الوقت لتحديد أسباب الشر، الذي ينخر البلد والتنديد به، وأنه من الضروري وضع حد لهذه الوضعية المأساوية.
- مهما علت وعظمت مهمة أيّ كان، فلا يحقّ له أن يدعي أنه يجسد وحده الجزائر...
- مهما كان شكل تداخل الصلاحيات، فلا يُمكن السماح بالتصرف في البلد وشؤونه العامة، وكأنها ملكية فردية وخاصة.
- التسيير السيء للإرث الوطني وتبديد الممتلكات العامة واللااستقرار والديماغوجية والكذب والارتجال فرضت نفسها كأساليب للحكم.
- عن طريق التهديد والابتزاز والاعتداء على الحريات الفردية والشك في المستقبل، يُراد إرغام البعض على الطاعة وآخرين على الخوف والصمت والخنوع.

- الحكم الفردي المكرس اليوم جعل المؤسسات الوطنية رهينة في يد رجل واحد يسند المسؤوليات حسب هواه، يُقيم ويُفكك وفق تكتيك مضل ومرتجل مؤسسات حاكمة، يفرض الخيارات والرجال وفق مزاج اللحظة، وبحسب رغبته وهواه.
- إن الأوضاع الدولية، مهما كانت مواتية، لا يمكن أن تسمح لرجل أن يستعملها تلبية لأغراض شخصية على حساب المصلحة العليا للبلاد.
- لا يحقّ لأحد أن يُهين الأمة ويخلط بين كرم الشعب وبين لا وعيه.

هذه مقتطفات منقحة ومزيدة من بيان صدر في 19 جوان 1965، وقرأه العقيد هواري بومدين، بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن جماعة وجدة الانقلابيين، ورغم التناقض بين الأفكار الواردة فيه ولغته وأسلوبه ونبرته العامة، فإن أعجب ما فيه هو تجسيده لوضعية تعيشها البلاد اليوم، لذلك نعتذر عن أيّ شبه بين الوضعيتين رغم تباعدهما في الزمن (36 سنة) فذلك خارج عن نطاقنا، كما يقول التعبير الدارج.

رعايا التاج البريطاني

"النفط لأمريكا،

والثقافة لفرنسا،

والولاء للملكة إليزابيث، أطال الله عُمرها".

بعد أن نجح الرئيس عبد العزيز بوتفليقة في دمج الجزائر في الحظيرة الفرانكفونية وتحقيق الحلم الذي راوده منذ الأيام الأولى من الاستقلال بتكريس مصالحة تاريخية، بدون قيد أو شرط، مع القوّة الاستعمارية القديمة، وبعد أن أثبت أنه يريد الخير.. كل الخير للأم الحنون الرؤوم فرنسا، كما قال عنه الجنرال ديغول سنة 1963، ها هو اليوم يُغازل الملكة إليزابيث الثانية، علّها تقبله عضوا فاعلا في تاجها، الذي تستظل بظلّه الشعوب البريطانية.

رئيسنا بعد أن أيقن أنه لن يتوّج ملكا في بلده، طلب، بدون عُقدة، من تابو أمبيكي، رئيس جنوب أفريقيا أن يرعى مسعاه، وإلتمس، بدون مواربة، من أوباسانجو، رئيس نيجيريا، أن يدعم خطاه، وتوسل، بدون مركب نقص، توني بلير أن يتوسط له لدى الملكة العجوز لتشمل بعطفها الجزائريين في عرشها الكريم. فالتاج البريطاني تاج رفيع، يتطلب كل هذه المساعي والوساطات لتقديم الولاء له. به الياقوت الأحمر، وبه الزُمرّد الأخضر، وبه اللازورد الأزرق، وبه اللؤلؤ الخالص، وبه الماس المتلألئ، ثم إن رئيسنا، حفظه الله، يريد بنا خيرا من وراء قصده ومسعاه للانضمام إلى الكومونولث. فهو يعرف أن كلمة الكومونولث تعني بالإنجليزية الخير المشترك. فلا بأس، إذا، أن يجعلنا نشترك في خيرات بلد تحكمه ملكة لا يُظلم عندها أحد، كما يقول الإسلاميون.

وإذا لم ترفض الملكة إليزابيث للرئيس طلبه، فمعنى ذلك أننا سنصبح في القريب العاجل إخوة في اللغة، وإخوة في المصير، وربّما حتى إخوة في الرضاعة لشعوب

وقبائل تسكن أدغال إفريقيا وأحراش آسيا، ومجاهل المحيطين الهندي والهادي.

وإذا قبلت الملكة إليزابيث للرئيس طلبه، فمعنى ذلك أننا سنتحول بين عشية وضحاها من جزائريين منقوصي الحقوق إلى رعايا بريطانيين كاملي الحقوق.

فالكومونولث، لمن لا يعرف ذلك، هو رابطة لشعوب وقبائل وعصبيات وعشائر وأعراش تُدين بالطاعة وتؤدي يمين الولاء للتاج الملكي البريطاني.

وإذا وافقت الملكة إليزابيث على طلب الرئيس، فمعنى ذلك أننا نحن الجزائريين بسياسيينا وأحزابنا وعروشنا وغاشينا مطالبون بالاعتراف، ولو رمزيا، بأن إليزابيث الثانية، حفظها الله من كل سوء، هي ملكتنا، وهي حامينا، وهي أمّنا.

وإذا باركت الملكة إليزابيث طلب الرئيس، فمعنى ذلك أن من حقها أن تُعيّن حاكما عاما للجزائر، كما كانت تفعل في الهند ومصر، إذا أحست أن الجزائر يحكمها ربع رئيس أو نصف رئيس أو ثلاث أرباع الرئيس، وليس رئيسا كاملا.

مرحبا، إذا، بالجزائر في رابطة الكومونولث، وبُشرى لنا جميعا بالتاج الملكي البريطاني. فالتاج البريطاني تاج جميل، به الياقوت الأحمر، وبه الزُمرّد الأخضر، وبه اللازورد الأزرق، وبه اللؤلؤ الخالص، وبه الماس المتلألئ. والحمد الذي جعلنا نتحوّل من أهالي في العهد الاستعماري، إلى غاشي بعد الاستقلال، ثم أخيرا إلى رعايا في العرش البريطاني العظيم، ولنرفع شعار "النفط لأمريكا، والثقافة لفرنسا، والولاء للملكة إليزابيث، أطال الله عمرها".

رجل القدر

"لا يُلام أحد لسقوطي سواي، لقد كنت العدو الأوّل لنفسي والسبب في الكارثة التي جلبتها عليها".

نابليون

حين استفزّ صحفيّ فرنسيّ عبد العزيز بوتفليقة بقوله "أنت قصير القامة" أفحمه الرئيس بردّه: "ولكني أطول من إمبراطوركم نابليون بثلاثة سنتيمترات".

وسرعة البديهة في جواب الرئيس تنمّ عن معرفته العميقة بدقائق سيرة الإمبراطور الفرنسيّ وخبايا نفسيّته، وتخفي في آن واحد إعجابه بشخصيته الفذّة وانبهاره أمام مصيرها الاستثنائيّ. وهو انبهار يبلغ في بعض الأحيان حدّ التقليد الأعمى لحركات نابليون وسكناته والتبني المطلق لطريقة تسييره لدواليب الدولة

ونظرته للسياسة وأسلوب الحكم. تماهي بوتفليقة بشخص نابليون فيه ألوان من المحاكاة، والتعاطف، والمشاركة الوجدانية، والعدوى العقلية، والإسقاط، والجاذبية إلى درجة أن نابليون تحوّل عنده إلى "نموذج أعلى"، رغم تباعد المسافة الزمنيّة بينهما، ولهذا التماهي أيضا مبرّرات، ففي حياة الرجلين العديد من أوجه التقاطع وخطوط التشابه مثيرة للفضول والاندهاش. فكلاهما منحدر من أصول متواضعة، توافرت لهما ظروف مواتية دفعتهما إلى أعلى مراقي الشهرة والنجاح، وكلاهما ينطوي على ضروب من الشجاعة، والاعتداد بالنفس، وسعة الخيال مدعومة بطاقة من النشاط الفياض والطموح العارم الذي لا حدّ له. وكلاهما مقتنع قناعة راسخة أنّه رجل قدر.. كما كان يحلو لنابليون أن يقول عن نفسه.

▪ نابليون آمن أنّه رجل قدر حين دحر الإنجليز في مدينة طولون، فتألق نجمه وأصبح جنرالا، وهو لمّا يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره، وبدأت تراوده أحلام غزو أوروبا وإخضاعها لإرادته... بوتفليقة أيضا آمن أنّه

رجل قدر حين خرج من صُلب الثورة ووجد نفسه وهو في العقد الثاني من عمره وزيرا للشباب، ثم وزيرا للخارجية في بلد فتيّ مُفعم بالطموحات العارمة والأحلام الجنونيّة.

▪ نابليون آمن أنّه رجل قدر، ورجل القدر نرجسيّ بطبعه، معجب بنفسه، لا يقبل أفكار غيره، ولا ينحاز إلى طائفة أو عُصبة إلاّ بدافع الأنانية لا إيمانا بمبادئ أو مثل عليا، لذلك لم يدخل نابليون حزبا واحدا إلاّ حزبه هو، فانضمّ إلى اليعقوبيين، لكنه سرعان ما اِنقلب عليهم، وقاد ثورته المضادة وأطلق النار على الشعب وأجهض أحلام الجمهورية، وأعلن نفسه إمبراطورا على فرنسا، وجسّد فكرة الإمبراطورية، التي تسلّطت عليه، رغم أنّه خرج من رحم الثورة. بوتفليقة أيضا آمن أنّه رجل قدر عاش في ظلال بومدين وأفكاره شبه الاشتراكية، لكنه حافظ على ميوله الليبرالية، ترشح لرئاسة الجمهورية فوق كلّ الأحزاب وبعد أن أوصلته هذه الأحزاب إلى سُدّة الحكم أعلن الطلاق معها بالثلاثة، واتّهمها أنّها لا تبحث إلاّ عن المناصب

والمكاسب، وهو يطلب منها أن تذوب كلها في حزبه، لأنّ رجل القدر لا يُؤمن إلاّ بحزب واحد، هو حزبه هو.

- نابليون آمن أنه رجل قدر، ورجل القدر لا يعترف بالهزائم ولا تُثنيه عن عزمه الانتكاسات، وشعاره هو القوّة، وهو لا يتنازل عنها لأحدٍ ولا يُشرك أحدا فيها. وبقدر ما كانت اِنتصارات نابليون عظيمة بقدر ما كانت هزائمه عديدة، لكنه كان يعود كل مرة مفعما بالكبرياء وجنون العظمة والإحساس بأنّه هو منقذ البلد ومخلّص الأمة. بوتفليقة أيضا آمن أنّه رجل قدر لم يعترف بالهزيمة التي منيّ بها في 1979، حين حُرم من الكرسي، وأبعد طيلة 20 سنه كاملة ظلّ فيها بعيدا عن الأضواء والنجوميّة يتجرّع مرارة المنفى وخيبه الأمل لكنه عاد. وحين عاد، عاد كما كان يعود نابليون كلّ مرة في مظهر المنقذ المخلّص الذي يعد الشعب بالحرية والسعادة.

- نابليون آمن أنه رجل قدر، ورجل القدر تأتي به الأقدار للتغيير، فكان أوّل عمل قام به كدكتاتور هو تغيير الدستور بعد أن عطّله بمساعدة أخيه "ليسيان".

وشكّل لجانا لسنّ القوانين والتصديق على الدستور، وكان يريد السلطة كلّها لا بعضها، لذلك رفض منصب رئيس الجمهوريّة في صورته الشكليّة، وقال عن الدستور "اِرموا عنّي هذا الخنزير السمين"، ثم قام بإصلاح الإدارة وأدخل عليها تعديلات وجعلها أكثر مرونة وطواعية. بوتفليقة أيضا آمن أنّه رجل قدر، فأعلن منذ البداية أنّه لا يحبّ دستور بلاده رغم أن هذا الدستور أوصله إلى الحكم، ولم يزر البرلمان بغرفتيه ولو مرة واحدة، ولم يُشرّف نوّاب الأمة، ولو بإلقاء خطاب واحد عليهم. ثم راح يشكّل لجنة تلو أخرى واحدة للعدالة، وثانية للتربية، وثالثة لإصلاح ما أفسد الدهر من أمر هذه الدولة المريضة، والهدف طبعا واحد هو تعطيل الدستور والتصديق على دستور جديد يُمكّنه من السلطة الكليّة والفعليّة.

- نابليون آمن أنّه رجل قدر، ورجل القدر لا يثق في أحد، ولا يأتمن إنسانا إلاّ أقرب المقربين إليه، لذلك حرص نابليون على إسناد المناصب الحسّاسة في الدولة إلى إخوانه وأقاربه، رغم ما عُرف عنهم من حماقة

وطيش، ورغم أنّهم كانوا لا يصلحون لذلك. وكان يحلم بإعلاء مقام أسرته إلى مصاف الملوك والأمراء، رغم أصلهم المتواضع. بوتفليقة أيضا مثله مثل نابليون لم يعيّن في المناصب الهامة إلاّ أصدقاءه وأقرب النّاس إليه، فرجل القدر لا يحكم إلاّ برجال ثُقلة يفكرون مثله ويأتمرون بأوامره.

- نابليون آمن أنّه رجل قدر، ورجل القدر لا يهدأ له بال ولا يطيب له مقام في نفس المكان، لذلك غزا نابليون أوروبا من أقصاها إلى أقصاها، وأوغل حتى أطراف روسيا، وكان لا يُنهي غزوة إلاّ ليخطط لأخرى، وعُرف عنه أنّه لا يملّ الأسفار، وكان السير 100 كيلومتر في اليوم لا يكلّفه كبير عناء. بوتفليقة أيضا لا يتعب من الأسفار والرحلات غزا العالم كلّه من أقصاه إلى أقصاه، بحثا عن صورة جديدة لبلده المسكين. ولأن رجل القدر منتشٍ بفكرة مصيره الاستثنائيّ ومهمته الإنقاذيّة المُخلّصة يصعد نجمه بسرعة لكن سرعان ما يأخذ في الأفول ويتخلّى عنه الجميع، مثلما تخلّت أوروبا كلّها عن نابليون ونفته إلى جزيرة سانت هيلانا، وهناك

عاش نابليون في عزلة كئيبة، ينتشي بانتصاراته الوهميّة، ويرتشف مرارة خيبه أمله، ليقول في خريف عمره:

"لا يُلام أحد لسقوطي سواي، لقد كنت العدو الأوّل لنفسي والسبب في الكارثة التي جلبتها عليها".

جحا، السلطة والحمار الناطق

لقد كان بوتفليقة صادقا حين قال في خطاب له "لكل زمان رجاله"، وكان سيكون أصدق لو أضاف "إلا في الجزائر،" لأن السياسة في الجزائر خارج الزمان، والزمان في الجزائر بلا رجال.

من منا يحمل جحا على محمل الجد؟ لا أحد بالطبع، ومع ذلك نروي أبا عن جد حكاياته ونتمتع بها، ونضحك من دعاباته القادحة وسخريته المريرة، وننبهر أمام نقده اللاذع لفوضى الأشياء أحيانا، ونأسى أحيانا أخرى لسذاجته البريئة. وجحا هذا هو شخصية شبه خرافية، موجودة وغير موجودة. هي نفسها عندنا في المغرب العربي، وهي نفسها في المشرق، وهي نفسها عند شعوب فارس وطبرستان وآسيا الصغرى، وإن اختلف الناس في تسميتها. عندنا نسميها جحا، وتسميها

شعوب الشرق الملاَ نصر الدين، وهي نفسها هنا وهناك، شخصية مشهورة بنوادرها ومواعظها. صاحبنا جحا لا يشتغل بالسياسة، ولا يتعاطاها لأنه يدرك أنها سبب شرور العالم وبلاويه، ولا يعاشر السياسيين لأنه يعرف أن جانبهم لا يُؤتمن، لا يدخل بلاطا، ولا يُقدّم ولاء، هو ببساطة إنسان مسكين، عاديٌّ، صغير، يعيش على الهامش ويسعى وراء قوته اليومي، يروي نوادر سرعان ما تتحول إلى حكم، أو تصبح من غير قصد مواعظ سياسية، ومنها هذه الواقعة التي حدثت له ذات يوم.

يُروى أن حاكما شبه مجنون حكم على جحا المسكين بالإعدام لسرقة حمار، فاقتيد جحا وسط الحشود نحو المشنقة لينفذ فيه الحكم على رؤوس الأشهاد. ولكي ينقذ جحا نفسه تفطن إلى فكرة جهنمية، فصرخ:

- أنا لم أسرق حمارا، لأن هذا الحمار هو أخي، وقد طلبت من أحد السحرة أن يمسخه في صورة حمار، غير أنه لو عُهد به إليّ مدة عام لعلمته أن يستعيد صورته

الأولى وكلامه الأصلي ويصبح مثلي ومثلك أيّها الحاكم.

اندهش الحاكم شبه المجنون، وطلب من جحا أن يردد وعده قبل أن يصدر أمره قائلا:

- حسنا! ولكن إذا لم يتكلم الحمار بعد انقضاء يوم واحد على العام فسوف أعدمك.

وعندما خرج جحا أسرعت إليه زوجته قائلة:

- كيف يمكن أن تعد بأمر كهذا؟ تعلم جيدا أن الحمار لن يتكلم؟

فأجاب جحا:

بالطبع أعلم، غير أنه بعد عام قد يموت الملك، أو يموت الحمار، وأموت أنا!

وهكذا أنقذ جحا نفسه، فخلال عام قد يموت الملك ويحمل معه إلى قبره وعيده، وقد يموت الحمار وفي هذه الحالة لن يطالب جحا برده إلى صورته الأولى، وقد يموت جحا ويكون قد عاش عاما "في الفائدة"، كما يُقال. والعبرة من هذه الحكاية هي كسب الوقت وتأخير حدوث البلاء.

وبنفس طريقة جحا تريد السلطة في الجزائر أن تنقذ نفسها، طريقة ربح الوقت وتأخير حدوث البلاء. ربح الوقت لمصالحها الآنية الضيقة، وتأخير حدوث البلاء. ليس على الشعب وإنما حدوثه عليها. وتعاملها مع أحداث القبائل خير دليل على ذلك. فالسلطة راهنت منذ البداية في أحداث القبائل على كسب الوقت بحساب ميكافيلي خبيث لكنه غبي. فأجلت الحلول، وجمّدت المبادرات، ولجأت إلى إذكاء التناقضات وتأجيجها حينا وتعويمها وتذويبها حينا آخر، تضرب هذا بذاك، تعد ولا تفي، تشتري الذمم وتبيع الهمم، ترفض الحوار في الوقت المناسب وبالوسائل الملائمة وتختار المواجهة، وحين تحاور تخطئ أطراف الحوار، كل هذا بعد فوات الأوان.

ما كان ممكنا أن يُحل قبل سنة، وبأقل التكاليف في الأرواح والممتلكات، تقدمه السلطة على أنه الحل السحري، لكن بعد خراب البصرة كما يقال. على أن السلطة ظاهرها وباطنها، كانت ولا زالت، بطبيعة الحال، وفية لأسلوبها وطريقة معالجتها لمشاكل البلاد منذ

الاستقلال، أي تجاهل المشاكل مهما كبرت، وابتذال القضايا مهما عظمت، وتسفيه المبادرات مهما زكت، وتهميش الطاقات مهما صدقت. والمؤسف حقا أن اعتماد السلطة شعار "الزمن كفيل بحل كل شيء" قاد البلاد في كل مرة إلى الخراب والدمار واليأس والإحباط.
وأكاد أجزم أن تنازلات الرئيس عبد العزيز بوتفليقة الأخيرة لصالح العروش هي مجرد تنويعة جديدة من تنويعات كسب الوقت وتأخير حدوث البلاء. كسب الوقت لصالح السلطة، وتأخير حدوث البلاء عليها. وأكاد أجزم، أيضا، أن الرئيس يشبه، مع الفارق التاريخي، الملك ألكسندر السادس الذي كان يعوّل دوما على نفاذ صبر خصومه وعلى يأسهم وخضوعهم في نهاية المطاف إلى إرادته الجنونية، فكان يعد بما لا يستطيع تحقيقه، ويُقسم بما لا يمكن تجسيله، غايته خداع الرعايا عن طريق كسب الوقت، فالوقت كفيل بإحباط إرادة الرجال، وكان ألكسندر يتقن هذا الفن أيّما إتقان.
لقد كان بوتفليقة صادقا حين قال في خطاب له "لكل زمان رجاله"، وكان سيكون أصدق لو أضاف "إلاّ في

الجزائر"، لأن السياسة في الجزائر خارج الزمان، والزمان في الجزائر بلا رجال. وحالة الجزائر تشبه حكاية جحا وحماره الناطق، مع فارق واحد، وهو أنه مع مرور الوقت سيعيش الملك وسيعيش الحمار، لكن الشعب سيموت حتما.

فرائد السياسة:

قال ايغناسيو سيلون: "للحكومة يد طويلة وأخرى قصيرة. اليد الطويلة تأخذ وتصل إلى كل مكان، أما اليد القصيرة فتعطي، لكنها تصل فقط إلى القريبين منها".

بوتفليقة والمصالحة مع فرنسا

في سنة 1963 استقبل ديغول الوزير الشاب عبد العزيز بوتفليقة، وكان من المقرّر أن يدوم اللقاء نصف ساعة فقط، لكنه استمر ساعتين، وقال ديغول عن بوتفليقة "هذا الشاب يريد لنا خيرا". فهل تعامله فرنسا بالمثل بعد التنازلات العديدة التي قدّمها لها الرئيس؟ مجرد سؤال في هذه الفترة المتميّزة برهانات انتخابية على الضفتين.

هيرفي بورج Herve Bourges رجل يصعب تصنيفه في خانة سياسية وفكرية معينة، فهو نفسه يعترف أن طبيعته مزدوجة، وأن له وجهين يتأرجح بينهما، وأنه أحيانا يتصرف وفق غريزته. له سيماء بوهيمية تفشي إقباله على متع الحياة وملذاتها، وتخفي في الوقت نفسه خيبات أمل كثيرة في مساره المتقلّب، ومع ذلك فجرأة

طموحه وحيوية فكره جعلاه يُقيم صداقات وطيدة وحميمة مع زعماء وشخصيات مرموقة من العالم الثالث، ومنهم رئيسنا عبد العزيز بوتفليقة. تقلّب هيرفي بورج في العديد من المناصب الهامة، فكان رئيس تحرير Témoignages chrétiens، وأستاذا في الإعلام، ومديرا لإذاعة فرنسا الدولية والقنوات التلفزيونية الفرنسية الثلاث، وعمل لصالح اليونسكو، وترأس المجلس الأعلى للسمعي البصري، وهو الآن من المنظرين الكبار للفرانكوفونية، ومشرف على سنة الجزائر في فرنسا. في العام الماضي اندهش الجزائريون، وهم يشاهدون حديثه مع الرئيس، بدون كُلفة وبلا تكلّف، وبنبرة خالية من الحرج، لكنها مخلّة بقواعد البروتوكول. والواقع أن هذا الاندهاش سرعان ما يزول إذا نحن عرفنا أن بين الرجلين صداقة ممتدة إلى أكثر من أربعين سنة، وترقى إلى الأيام الأولى من الاستقلال. فقد كان هيرفي بورج مستشارا للرئيس أحمد بن بلة، ثم ألحقه بوتفليقة بوزارة الشباب والرياضة، وعمل بعد ذلك في وزارة العدل والإعلام إلى أن اعتقلته المخابرات

الجزائرية سنة 1966، وكان بوتفليقة من الذين تدخلوا لإطلاق سراحه. وانتهت السنوات الجزائرية من حياة هيرفي بورج وانتقل إلى الضفة الأخرى ليشغل المناصب التي ذكرناها أعلاه. ومع ذلك فهو ما يزال يعتبر نفسه رجلا لضفتين ونصير التنوع الثقافي وحوار الحضارات. أصدر هيرفي بورج مؤخرا مذكراته بعنوان (De mémoire d'éléphant) يتحدث في جزء منها عن صديقه الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، قد يكون من المفيد للقارئ أن يرى بعض ما جاء فيها لأسباب كثيرة، ومنها مسعى الرئيس نحو مصالحة تاريخية مع فرنسا، عدوة الأمس اللدودة وشريكة اليوم العنيدة. يقول هيرفي بورج:

بدأت أعرف شخصية عبد العزيز بوتفليقة الأصيلة والقوية في الوقت الذي طلب مني أن ألتحق به لأعمل معه يوميا. ومنذ 1963 بدأت أعي جيدا تميّز هذا الضابط الشاب، المختلف بمواقفه وطبعه الفريد عن بقية ضباط الحدود. ومع ذلك كان مقربا من العقيد بومدين الذي كان يثق فيه. خلف لباسه العسكري

تختفي شخصية غير قابلة للاختزال ونظرة سياسية تتجاوز الأحداث الآنية لتواجه التحولات الكبرى. ما زلت مذهولا من أحاديثنا آنذاك بمسعاه الفردي، الذي يتبناه بشكل المنظم والمتميز دوما، بالقطيعة مع الفكر الرسمي للنظام. وهو مسعى متجذر في أصالة جذرية لا تقبل التسويات. وهو يشاطر، بلا شك، رفقاء دربه في الكفاح حسهم الوطني المفرط وإرادة واحدة مُعلنة لبناء جزائر متخلصة من ماضيها الكولونيالي. لكنه يمتاز عنهم برغبة لحرق المراحل وعدم الارتباك أمام الشكليات.. وهو ليس مفتونا بأوثان "الثورة" وأبطال الاستقلال وأغاني المفاخر وعبادة الشهداء التي توظف في الغالب لروح الانتقام والإيديولوجيا والنهج السياسي. عن علاقة الجزائر المستقبلية مع فرنسا كانت لبوتفليقة أفكار واضحة: "يجب على فرنسا أن تدرك أننا لسنا ثلاث مقاطعات، نحن بلد بأتم معنى الكلمة، بلد سيّده مستقل وحر في تحالفاته واختياراته الدبلوماسية، وحر في حركاته في اللعبة الدولية. لقد خلق التاريخ بيننا وشائج حميمية وسنكون أغبياء لو أننا

تنكرنا لذلك. ينبغي لنا أن نتعلم العمل سويا، بدون أحكام مسبقة، وبدون تحفظ وبدون عقد تفوق أو نقص". ولهذا، كان بوتفليقة ينتظر "أعمالا رمزية" من جانب فرنسا، التي ينبغي أن تكون هي المبادرة بذلك، لكن رسالته، حسب شهادة هيرفي بورج، لم تفهم جيدا، خاصة في صفوف جبهة التحرير الوطني، التي كان بعض مناضليها لا يفهمون لهجته الحازمة وحدتها الحداثية. ويضيف هيرفي بورج أنه وبحكم الظروف وهيجان الأمزجة ودمار الحرب وجسامة الجرح الذي خلّفه ترحيل الفرنسيين من الجزائر لم يتحقق حلم المصالحة الفرنسية الجزائرية التي تحدث عنها بوتفليقة أمامه سنة 1963. ووجب انتظار 1999.. ليعود القائد القديم كزعيم كاريزمائي يحمل نفس الرسالة، ونفس الآمال ونفس المتطلبات، عنيد دوما، متبرم دوما من ثقل الماضي والانقسامات العقيمة والطابوهات والتعصب. وربما تسنى لنا الآن بعد هذه الصورة التي يقدّمها هيرفي بورج عن "صديقه الرئيس" أن نفهم في سياقها الحقيقي جهود بوتفليقة الرّامية منذ صعوده إلى سدّة

الحكم إلى إعادة الاعتبار لشخصيات ورموز، بل ومراحل كاملة من التاريخ الوطني، ولجوئه بمناسبة وبغير مناسبة إلى لغة موليير وحديثه عن إسهام اليهود في التاريخ الثقافي للجزائر ودعوته للمغني أونريكو ماسياس لزيارة الجزائر، وقبوله التعامل مع حظيرة الفرانكوفونية، وإصراره على إقامة سنة الجزائر في فرنسا عام 2003. وهذه الخطوات تقود بلا شك إلى تلك المصالحة التاريخية مع العدو القديم التي كان بوتفليقة يحلم بها من 63. لكن هل فرنسا مستعدة للتعامل مع الجزائر بدون عقدة تفوّق وبدون أحكام مسبقة؟ علاقاتنا معها علمتنا أن فرنسا لم تهضم وجود الدولة الجزائرية، وقد عبّر عن ذلك جيسكار ديستان حين زار الجزائر سنة 1975 بقوله "فرنسا التاريخية تحيي الجزائر المستقلة"، وعلمتنا أيضا أنها كانت تريد أن تمزق صفحة الماضي، في وقت كان الشاذلي بن جديد يريد طيّها فقط، وعلمنا الحاضر أن عبد العزيز بوتفليقة عاد من زيارته من باريس فارغ اليدين خالي الوفاض، رغم إعجاب الديغوليين به. في سنة 1963 استقبل

ديغول الوزير الشاب عبد العزيز بوتفليقة، وكان من المقرر أن يدوم اللقاء نصف ساعة فقط، لكنه استمر ساعتين، وقال ديغول عن بوتفليقة "هذا الشاب يريد لنا خيرًا". فهل تعامله فرنسا بالمثل بعد التنازلات العديدة التي قدّمها لها الرئيس؟ مجرد سؤال في هذه الفترة المتميّزة برهانات انتخابية على الضفتين.

في الانقلاب العلميّ

الجزائر هي البلد الآمن الوحيد في العالم الذي أصبح يسبغ على الانقلابات، والمقالب صفة "العلميّة".

عطفا على مقالي الخاص بجنازة "رضا مالك"، والذي اِقتضبت فيه الحديث عن "بشير بومعزة" اِرتأيت أن أنشر هذه الشهادة عنه.

كنت أتمنى لو أنّ شيخ الشيوخ، بشير بومعزة، اِستقال من منصب الرجل الثاني في هرم الدولة بدل أن يطرد شرّ طردة، وبأسلوب غير حضاريّ من أضيق أبواب مجلس الأمة.

بل تمنيت لو أنّه اِستقال مع مجيء عبد العزيز بوتفليقة لأنّه كان واضحا منذ البداية ذلك أنّ الرجلين على طرفي نقيض، ولا شيء يجمع بينهما، لا في أسلوب الحاكمية، ولا في تصوّر المسؤوليّة، ولا في أخلاق ممارسة

السياسة، إن كان للسياسة أخلاق. فالرئيس بوتفليقة أعلن منذ الأيام الأولى لتولّيه الحكم، أنّه لا يحب دستور بلاده، وأنّه لا يستسيغ وجود الغرفة الثانية، بل إنّه ذهب إلى أبعد من ذلك حين طلب من بومعزة في عزّ حملته الانتخابيّة، وبصفته رئيسا قبل الأوان، أن يستقيل ليجنّبه إهانة الإقالة.

وبلغت الأزمة بين الرجلين حدّ أنّهما لم يلتقيا منذ عامين إلاّ في مناسبات عابرة تفرضها قواعد البروتوكول.

إرادة الرئيس اِصطدمت بعناد الرجل الثاني في الدولة، الذي كان يردّد أنّه لن يبرح كرسيه حفاظا على السير الطبيعيّ لمؤسسات الدولة، وعلى ديمومتها، لكنّه في واقع الأمر ركب رأسه، ورفض الإذعان من منطق جزائريّ بحت هو "هنا يموت قاسي". فوقع "قاسي" ضحية اِنقلاب "علميّ" على غرار الانقلاب، الذي عصف بعبد الحميد مهري، قبل سنوات في البلد الآمن الوحيد في العالم الذي أصبح يُسبغ على الانقلابات والمقالب صفة "العلميّة".

وهذا الانقلاب "العلميّ" وبصرف النظر عن إختلاف التأويلات القانونيّة للمادتين 114 و181 من الدستور، يطرح مرة أخرى مسألة الانتقال والتّغيير في ظلّ مؤسسات دستوريّة هشّةٍ، أُخضعت لأهواء الأشخاص، ونزواتهم، وكبريائهم، ونزعتهم الجامحة نحو الاستحواذ على مركز اِتخاذ القرار والإستفراد بالحكم.

ويبقى الجدل حول المؤسسات الدستوريّة، وصلاحياتها في المراقبة عقيما، إذا عرفنا أنّ الوقت الذي اِستغرقه الانقلاب "العلميّ" شغل الطبقة السياسيّة أكثر من نقاشه جوهر هذه المؤسسات ووظائفها. وكان واضحا أنّ الأطراف الانقلابيّة حاولت في سعيها غير المحمود إرضاء إرادة الرئيس البونابارتيّة، وفهمت أنّ بوتفليقة بعدما أخضع الحكومة، وقزّم الأحزاب، وحيّد المجلس الدستوريّ، لم يبق أمامه إلاّ مجلس الشيوخ، وبالأحرى رأس بشير بومعزة.

ولعلّ قضية بومعزة على صورتها، تطرح مرّة أخرى هشاشة وتبعيّة الطبقة السياسيّة في الجزائر، التي مازالت تحكمها الفكرة الانقلابيّة وثقافة "التخياط

والتخلاط"، ومازالت غارقة في مستنقع الدسائس، والمقالب الدنيئة، والكذب الصريح. طبقة سياسيّة مستعدّة لبيع روحها للشيطان حفاظا على مزاياها. فالشيوخ أنفسهم الذين أعلوا بومعزة، أسقطوه برفع الأيادي وطأطأة الرؤوس، وبن حمودة نفسه، الذي كان متضامنا مع بومعزة جنّد مخابره الانقلابيّة للإطاحة به، والأرندي نفسه الذي طمأن بومعزة بتأييده اِنقلب عليه في آخر لحظة. وحتى أولئك الذين يدّعون الدفاع عن الجمهوريّة وقيّمها، قادوا جوق المؤامرة، وبرروا الفكرة الانقلابيّة.

صحيح أنّ النزعة الديكتاتوريّة عند الشيخ بومعزة لا تحتاج إلى دليل، فكلّ أعضاء الغرفة الثانية طرحوا علّة تساؤلات حول تسييره، واتّهموه بأنّه أصبح هو مكتب المجلس، ورئيس لجان هو الآمر الناهي فيها، لا يستأنس برأي، ولا يسمع لصوت.

لكن يبدو لي أنّ ما حدث بين الرجل الأول، والرجل الثاني في هرم الدولة، يتجاوز كلّ هذه المسائل، وينبغي

أن نبحث عنه في علاقة الرجلين ببعضهما، وأمزجتهما، وسيكولوجيتهما، وماضيهما.

لقد ورث الرجلان عن الثورة بسلبياتها وإيجابياتها قيّمها، وتحّملا منذ الاستقلال نفس أعباء بعث الدولة الوطنيّة، لكن رغم ذلك، فإنّ ما يفرّقهما أكثر ممّا يجمعهما. وظلّ الرجلان على طرفي نقيض يتجاذبهما التنافر، والنبذ، والإلغاء، وحتى الكراهية في بعض الأحيان. واستمرّ بومعزة يتّهم بوتفليقة بأنّه عاش في ظلّ بومدين، وكرّر بأنّ اتّهامه له بـ "بومدين" يزعجه، والدليل على ذلك أنّه تحدّث عنه أثناء الحملة الانتخابيّة، وفي قالة لغرابة الأمر". كما أنّ بومعزة لم ينس أنّ بوتفليقة كان هو ملهم، ومنظّر جماعة وجدة التي انقلبت على بن بلة، وأدّت في نهاية المطاف إلى إبعاد بومعزة الذي استقال هو، ومحساس، وفضّلا طريق المنفى بسبب خرق المبادئ وإمتهان المؤسسات. بومعزة أيضا لم ينس أنّ جماعة وجدة هي التي روّجت عنه شائعات عن نهبه لأموال الدولة، وسوء تصرّفه في الأملاك العموميّة،

وظلّ أيضا يردّد في حلقاته الضيّقة، أنّ هذه الجماعة هي التي حطّمته كرمز وطنيّ، وكرجل سياسيّ.

بوتفليقة نفس الشيء، ظلّ طيلة حياته السياسيّة يبادل بومعزة الشعور نفسه، ولم تكن خصال بومعزة، وحنكته السياسيّة، وماضيه الممزوج بالعمل الثوريّ، لتروق له.

ويبدو أنّ الصورة التي رسمها صديق بوتفليقة، ومستشار بن بلة بعد الاستقلال Bourges Hervé لبومعزة تبرز تلك الجوانب الخفيّة التي لا تعجب الرئيس.

يقول Hervé Bourges: "إنّه رجل صغير ذو وجه ضامر، وسلوك ثوريّ محترف، ونظرة ثاقبة، جاف مثل مسقط رأسه القبائل، محترس دائما. بشير بومعزة رجل ذو طبع، ومن طينة تثير اِفتتان الجميع. إنّه يوحي بالكثير من الوفاء، أو يثير عداوة مستديمة. إنّ سلوكه الإنسانيّ، والتزاماته السياسيّة، وطريقته في مواجهة الأحداث باللجوء إلى وسائل التسوية، والمناورة دون إغفال الهدف الذي يتوخّاه، أو القيمة الجوهريّة وطريقته في الالتصاق بالواقع، والابتعاد عنه بسرعة، وخطواته المفاجئة إلى الأمام وتراجعه المباغت إلى الوراء، كلّ هذه المواقف لا

يمكن أن يقدّرها حق قدرها إلاّ القليل: المناضلون الذين يعرفونه منذ فترة طويلة، والأصدقاء الذين يدركون ما تخفيه المظاهر. هذه المواقف تربك كلّ الآخرين الذين لم يكونوا يريدون أن يروا طموحه الشخصيّ كدافع، وانتهازيته كوسيلة.

ولم يكن بوتفليقة من الذين يقدّرون الماضي الثوريّ لبومعزة على ثرائه، فهو لم يكن مناضلا معه، ولا صديقا له، وإنّما كان دائما يرى فيه طموحا شخصيّا مبالغا فيه، وانتهازية يخفيها في المواقف الحرجة. ويبدو أنّ هذه هي الأسباب الحقيقيّة العميقة، التي دفعت بالرئيس إلى التعجيل بترحيله، عن طريق تكليف الآخرين، بأن ينظّموا له انقلابا "علميّا" في هذا البلد الآمن الوحيد في العالم الذي أصبح يُسبغ على الانقلابات والمقالب صفة "العلميّة".."

الرئيس واللجان

ثم إن الرئيس بعد أن أوهم نفسه بأن مستقبله وراءه، اقتنع أن ماضيه أمامه، فصدّق أن الأقدار ساقته لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من حُطام هذا البلد غير الأمين. وحين تفرّغ للنظر في سيّر المشاهير السياسيين اكتشف فجأة أنه يمكن له أن يُبشر بمستقبل زاهر لشعبه بصيغ الماضي وأساليبه. يمكن مثلا أن يحكم الديمقراطية بمنطق الديكتاتورية، ويمكن أن يتمتع بسلطة الملوك وهو رئيس، ويمكن أن يسيّر الجديد بالقديم، ويمكن أن يحكم الشباب بالشيوخ، وحتى لا تضيع منه حكمته، وتبطل فكرته، ولكي تنقاد له الأمور وجد في التاريخ نموذجه ومثله الأعلى. وفي غمرة اكتشافه اعتقد أنه هو حقا ذلك الرجل. وجد في التاريخ رجلا قريبا إلى الأرض مثله قويّ العزيمة، بطموح استثنائي، مغامر، شجاع

يعرف متى يُؤخر رجلا ومتى يقدم أخرى، إنه نابوليون بونابارت.. هدفه الأعلى في السياسة القوة، دون المثل الأعلى.

ثم إن الرئيس حين نظر في سيرة نابليون وجد أنه حين عاد من مصر وجد الشعب يتطلع إليه كمنقذ، ووجد البلاد غارقة في مشاكل لا أول لها ولا آخر، فتضخمت رغبته في السلطة الفعلية لا الصورية، وعمل بمساعدة أخيه "ليسيان" على طرد المجلس بالقوة، وأبطل الدستور ليضع دستوره الخاص.. على مقاسه. ورفض أن يكون رئيسا للجمهورية دون سلطة حقيقية، ورفض أن يمثل الجمهورية رمزيا ويوقّع القوانين والمراسيم شكليا، كما يفعل الملوك. نابوليون لم يقبل هذه الفكرة ومثله فعل الرئيس، فلم يقبل أن يكون ربع رئيس أو نصف رئيس أو ثلاثة أرباع رئيس، وشبّه مشروع الدستور بـ"الخنزير السمين"، وقل "أبعدوه عني"، مثلما فعل الرئيس حين صرح أنه لا يحب دستور بلاده.

ثم إن الرئيس أعجب بفكرة اللجان واستلهمها من نابوليون، فهذا الأخير نصّب في الليلة الأولى التي أعقبت

الانقلاب وقبل سنّ الدستور الجديد لجنتين، وأشرف على أعمالهما بنفسه وبمساعدة أخيه "لوسيل"، ونجح في 1804 في فرض القوانين التي عُرفت في التاريخ بمجموعة قوانين نابوليون، وهي قوانين أصلحت الإدارة والعدالة وأكسبتهما التنظيم والفعالية والمرونة، وكانت بمقاييس ذلك العصر تقدمية، وظلت هذه القوانين مثالا لأوروبا كلّها وللجزائر بعد احتلالها واستقلالها. ثم إن الرئيس حين اقتنع بفكرة اللجان لوضع دستور جديد عمل بمساعدة أخيه السعيد على إنشاء أربع لجان، اللجنة الأولى أراد بها أن يُصلح المدرسة الجزائرية المنكوبة، وبعد عمل طويل زاغت اللجنة، وضاع جهدها وصرف الرئيس ذهنه عنها وأقفل الدرج على ملفها، ثم فتح درجا آخر حين ارتأى ضرورة إصلاح العدالة في بلد بلا عدالة. والنتيجة ماثلة اليوم أمامنا. رجل المهام القذرة يمنع الأئمة من الخطبة من على المنابر، ويكمّم أفواه الصحافيين، ويقيّد عمل المحامين. وأنشأ الرئيس لجنة ثالثة لإصلاح ما أفسده الدهر في هذه الدولة المريضة، وانتهت اللجنة من عملها بعد أن استمعت إلى المسؤولين المباشرين عن نكبة الدولة الجزائرية، والخلاصة إصلاح الدولة برجال كانوا سببا

في فسادها. اللّجنة الأخيرة نصبت للتحقيق في أحداث القبائل، وقيل عنها إنها مستقلة، وبقي فقط أن نعرف هل ينفذ الرئيس التزامه العلني بمعاقبة المسؤولين عن هذه الأحداث؟

ثم إن الرئيس يعرف أفضل من غيره أن اللجان ليست ابتكارا جديدا في الجزائر. وإنما هي بدعة قديمة منذ أن كان مساعدية ينصّب اللجان صباحا ويحلّها ليلا في عهد الأحادية..

وهو يعرف أيضا أن لا لجنة للمحاسبة حاسبت المسؤولين الذين اختلسوا أموال الشعب. ويعرف أيضا أن لجنة التحقيق في أحداث أكتوبر لم تكشف لنا عن خفايا وخبايا تلك الأحداث. ويعرف أيضا أن لجنة التحقيق في تزوير الانتخابات أخفت الملف ولم تنشره، وأن رئيسها هرب بالملف، ويعرف أيضا أن لجنة التحقيق في اغتيال محمد بوضياف لم تُقنع أحدا بمقولة الفعل المعزول. والرئيس يعرف أفضل من غيره المقولة التي حفظها كل الجزائريين، وأصبحت قاعدة أساسية في العمل السياسي بالجزائر "إذا أردت أن تُقبر مسألة من المسائل، فشكَل لها لجنة.

جيسكار، بومدين وبوتف...

بعد مضي سنة على صعوده إلى سدّة الحكم زار فاليري جيسكار ديستان الجزائر في أفريل 1975. وكانت أول مرّة تطأ قدما رئيس فرنسي أرض الجزائر في زيارة رسمية. ولم يكن ديستان يحمل للجزائر ودّا أو مودّة، ولم يكن يسعى للتعامل معها بعدل أو حقّ. ظلّ ديغوليا في نظرته إلى الجزائر ومستقبلها. وسبق له أن رفض المشاركة في التفاوض مع جبهة التحرير في إطار تطبيق الشقّ الاقتصادي من اتفاقيات إيفيان. ولم تكن صلاته بالمنظمة العسكرية السريّة المسلّحة خافية على أحد. بل إنّه كان من أنصار تقسيم الجزائر إلى شمال وجنوب.

جيسكار، آخر الديغوليين الذين لم يستسيغوا استقلال الجزائر، سعى إلى تطوير سياسة تقارب في المجالين العسكريّ والاقتصاديّ مع الموريتاني مختار ولد دادة،

واتّخذ موقفا صريحا مع الحسن الثاني في ضمّه للصحراء الغربيّة. لكن الجزائر ظلت غصّة في حلقه.

حين جاء جيسكار الجزائر استقبل بحفاوة بالغة في شوارع ديدوش مراد وفي قسنطينة وسكيكدة، ومع ذلك أصرّ على إهانتنا بالقول: "فرنسا التاريخيّة تحي الجزائر المستقلة" أي أن الجزائر بلد بلا تاريخ، واضطر بومدين إلى الردّ عليه بالقول: "لقد طوينا الصفحة، ولم نمزّقها، لكن الجزائر هي صنيعة التّاريخ".

ويدعو جيسكار بومدين لزيارة فرنسا ويرفض "الموسطاش"، ويرفض بعد ذلك العلاج في فرنسا، خوفا من تسميمه ويفضل موسكو. وحين عادت الطائرة في آخر رحلة لها من موسكو، وبومدين في آخر سكرات الموت، حلّقت فوق أجواء كورسيكا الفرنسيّة. ويتعجّب ديستان من ذلك، ويتعجّب أيضا من فحوى البرقيّة الرائعة والحارة التي أرسلت إليه من الطائرة، وتدعو إلى إستدراك الفرصة الضائعة في العلاقة بين البلدين. فمن أمر بحرف مسار الطائرة بتحليقها في الأجواء الفرنسيّة،

ومن كتب البرقيّة؟ مع بومدين في الطائرة لم يكن سوى عبد العزيز بوتفليقة.

في الصفحة 43 من الجزء الثاني من مذكراته "السّلطة والحياة" يتحدّث جيسكار عن بوتف بهذه العبارات: "هو نشط، لبق، جريء. كان يغيب عن الأنظار طوال أسابيع دون أن يترك أثرا. وكان يحدث له أن يأتي إلى باريس خفية وخلسة دون اطلاعنا. كان ينزوي في شقّة بفندق فخم تتردد عليه نساء أنيقات. وهناك من يؤكد أنه كان يحمل شعرا مستعارا (باروكة)" هذا الكلام للرئيس فاليري جيسكار ديستان، وليس لي...

إفاضة:

رسالة مفتوحة بشأن تعديل الدستور

السيد رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة،

لا نستطيع أن نبدأ هذه الرسالة المفتوحة دون أن نرجو من سيادتكم اعتبارها مجرد مبادرة من أستاذين من كلية العلوم السياسة والإعلام، جامعة الجزائر، أستاذين لا علاقة لهما بأي حزب أو تنظيم مهما كان ولا بأية جماعة تسعى لأن يكون لها موطئ قدم في السلطة عن طريق التزلف أو المساومة بشأن ما ترى نفسها أهلا له. كما أننا لا نرجو منكم أي مَنٍّ عدا أن تمنوا على البلاد بحكم منصبكم ووعيكم بما نحن في حاجة إليه في مجال الممارسة السياسية. ولعل سيادتكم تلحظون أننا لم نلجأ إلى طريقة اللائحة مثلما جرت العادة، فقطعنا بذلك السبيل أمام طرح السؤال المعهود حول الجهة التي يمكن

أن نسعى لفائدتها. إننا نخاطبكم، سيادة الرئيس، كأستاذين جامعيين مهمومين بالشأن العام والكيفية التي تتطور بها الممارسة السياسية التي تواجه صعوبات جمّة في بلادنا. إننا، بحكم المهنة والتخصص، لا ننقطع عن تلقين طلبتنا، سنة بعد سنة، مبادئ الحكم الراشد واحترام الدستور من حيث هو عقد اجتماعي سياسي ووثيقة تؤسس للممارسة الديمقراطية على قواعد صلبة مهما تصارع الناس على السلطة وحل زيد ورحل عمرو. ونصدقكم القول إن ما يأتي على لساننا في هذا الشأن غالبا ما يثير لدى بعض طلبتنا نوعا من السخرية المحتشمة وكأننا بهم يقولون: إنك، يا أستاذ، كذاك الذي يؤذن في مالطا! نحن في أمسّ الحاجة إلى هذه النظرة إلى الدستور لاسيما وأن طبقتنا السياسية لاتزال في بداية المشوار، تحمل نفس العيوب التي يحملها المرء في صغره من نرجسية، اعتداد بالنفس واستعداد للمغامرة، بينما هناك عصبة تريد أن تفرض وصايتها على مواطني هذا البلد وتستبد بالحكم إلى الأبد. نعم، سيادة الرئيس! نريد أن نفاتحكم في مسألة تعديل

الدستور الذي كان من الغريب أن يبدأ الكلام فيه قبل الأوان؛ هذا التعديل الذي صار، في أذهان الناس، مقتصرا على المادة 74 من الدستور، كما لو كان الهم الوحيد للسيد عبد العزيز بوتفليقة هو الخلود في المنصب وليّ عنق الدستور. لا نظنكم هكذا لاسيما وأننا متيقنون من أنكم تعرفون أن من يهمهم هذا الجانب من التعديل فاقدون لأية حجة لأن لا حجة لهم أصلا. إنهم يخشون على مصيرهم لو فضلتم الرحيل بطريقة مشرّفة، طريقة تدخلكم -عكس بعض الرؤساء الأفارقة ممن انقلبوا على دستور وضعوه بأنفسهم- التاريخ بعد قولتكم: إلا هذا فلا! سيادة الرئيس، اسمحوا لنا إن قلنا لكم إن الدستور الحالي في حاجة لا إلى تعديل فقط وإنما إلى تغيير شامل في بنوده، شكلا ومضمونا. لكن حينما تتوافر الظروف، وفي بداية العهدة الرئاسية لا في نهايتها. ومع ذلك، فإذا كانت هناك مادة واحدة في الدستور الحالي يجب ألا يطالها التعديل فهي المادة 74 بالذات، وذلك للأسباب الآتية؟

- من المعلوم أن تحديد العهدات الرئاسية باثنتين عُرْف

دستوري درج عليه النظام السياسي الأمريكي منذ نشأته اتقاء لشر التسلط. واللافت للانتباه حقا أن هذا العرف دأب عليه جميع الرؤساء الأمريكيين، منذ جورج واشنطن، قبل أن يُدرَج كتعديل دستوري إثر الحرب العالمية الثانية بعدما وقع تجاوزه في فائدة الرئيس فرانلكين روزفلت. ولا يخفى عليكم أن ظروف الحرب هي التي كانت وراء هذا التجاوز.

- تقييد عدد العهدات الرئاسية في دستور 1996 كان يحمل رسالة إلى الرأي العام في الداخل والخارج للإفادة بصدق النية في تغيير الممارسة السياسية المعهودة بممارسة أخرى تتيح التجديد بعد مدة معقولة.

- لا يمكن أن نحدد عدد العهدات باثنتين ثم نتراجع، هكذا تزامنا مع انتهاء عهدتكم الثانية. لا يتعلق الأمر هنا بمصداقية نظام الحكم الحالي فقط، وإنما أيضا بمصداقية الكيان السياسي الجزائري بشكل عام.

- لقد سعت الجزائر دوما إلى أن تكون قدوة في مجال المبادرات الجريئة ويحزننا أن تضحى محسوبة من "الدول الرخوة". ثم إن الجزائر كانت، في عهدكم، من البلدان

الإفريقية الأولى التي بذلت قصارى جهدها من أجل نجاح مبادرة "النيباد" (NEPAD) و"الآلية الإفريقية للتقييم من طرف الأنداد" (MAEP).

- وفوق كل هذا وذاك، عدم تحديد عدد العهدات الرئاسية -مهما كانت الحجّة- من شأنه رهن مستقبل الجزائر لأنه يعمل في صالح النزعات الاستبدادية وعشاق الجمهوريات الملكية من طراز ليبيا القذافي (في الحكم منذ 40 سنة تقريبا)، غابون الحاج عمر بانغو (في الحكم منذ 40 سنة) ويمن علي صالح (في الحكم منذ 30 سنة)؛ علما أن ذلك هو ما يجعل السياسة مجرد دسائس ويقوي شبح الانقلابات ويتعذر معه منع تدخل العسكر في المعترك السياسي. علاوة على ذلك، الاستمرار في الحكم مدة طويلة ينهك صاحبه ويجعله أقلّ نشاطا ومبادرة، ومن ثمة أقلّ فعالية. كما أن هذا الاستمرار من شأنه أن يفضي، مع الوقت، إلى فساد النظام السياسي، لاسيما بسبب العزلة التي تُضرب على الرئيس مع مرور الزمن بفعل المحيطين به والمستفيدين في ظل النظام

القائم ممن لا يمكن أن يرضيهم سوى استقرار الأمور على ما هي عليه.

- ليست هناك طريقة أجدى من تحديد العهدات في ضمان عملية التناوب على السلطة بشكل سلمي وخلق جو من المنافسة السياسية الحقيقية وكذا التجديد الضروري للطبقة السياسية بصورة دورية. إن الفائدة الكبرى التي يمكن أن تحصل، بفضل هذا التدبير، هي أيضا ترشيد السياسة كي لا تضحى مفسدة، كما يقول محمد عبده، وكي تخرج من مرحلة نمط السلطة "التقليدي" إلى نمط السلطة "العقلاني القانوني" كما يقول ماكس فيبر. مما تقدم، يمكن أن نستخلص هذه الحكمة القيمة: لا سبيل لرئيس يريد أن تخلَّد ذكراه غير التصرف تصرف الضيف العزيز. هذه، سيادة رئيس الجمهورية، جملة من الأفكار أردنا أن نسهم بها لدى جنابكم الرفيع خدمة للعملية السياسية في الجزائر.

نتمنى، فقط، أن تقدروا أهمية هذا الإسهام وصدقه. فكما كنتم، غداة الاستقلال، فيما نذكر، ضد "تتفيه" الدستور بقاعة سينما، بتعبير فرحات عباس، لا نخالكم اليوم إلا رافضين أن يقع هذا "التتفيه" مرة

أخرى... بعد نصف قرن من تحقيق سيادتنا الوطنية.

ختاما، يبدو لنا أن دعاة التعديل (ممن تهمهم المادة 74 على وجه الخصوص) في حاجة إلى التأمل في معاني هذه الأبيات المقتطفة من قصيدة لفيكتور هيجو خص بها الجمهورية الفرنسية الثالثة في عهده (معذرة إن بدت الترجمة رديئة)

ما نسميه ميثاقا أو دستورا هو عرين يحفره في الصوّان
شعب ثائر كملاذ آمن وموثوق
ثم يودع، وهو سعيد في هذا الحصن المنيع
كل فتوحاته وكل حقوقه التي دفع في سبيلها الثمن الغالي
ويتخلى فيه عن حريته المتوحشة
ثم يهدأ بعد ذلك وينصرف إلى أعماله
يعود إلى حقوله مزهوا بحقوقه الجديدة
وينام قرير العين على تواريخه الشهيرة
وينسى أن يفكر في اللصوص المتسكعة في الظلمات...
إلى آخر القصيدة.

تقبلوا منا، سيادة رئيس الجمهورية، أخلص عبارات الاحترام والتقدير.

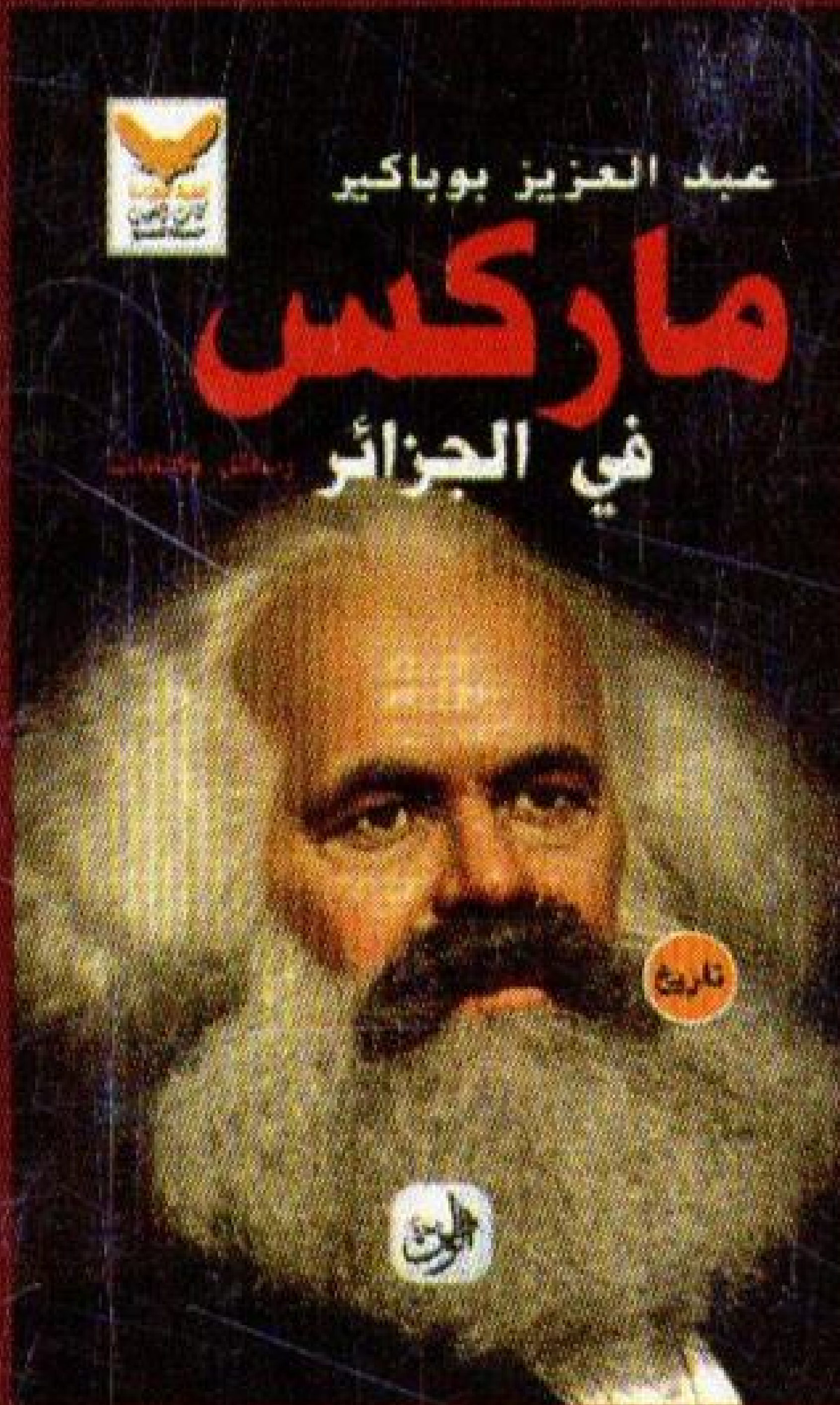
محمد هنـــاد وعبد العزيز بوباكير

محتويات الكتاب

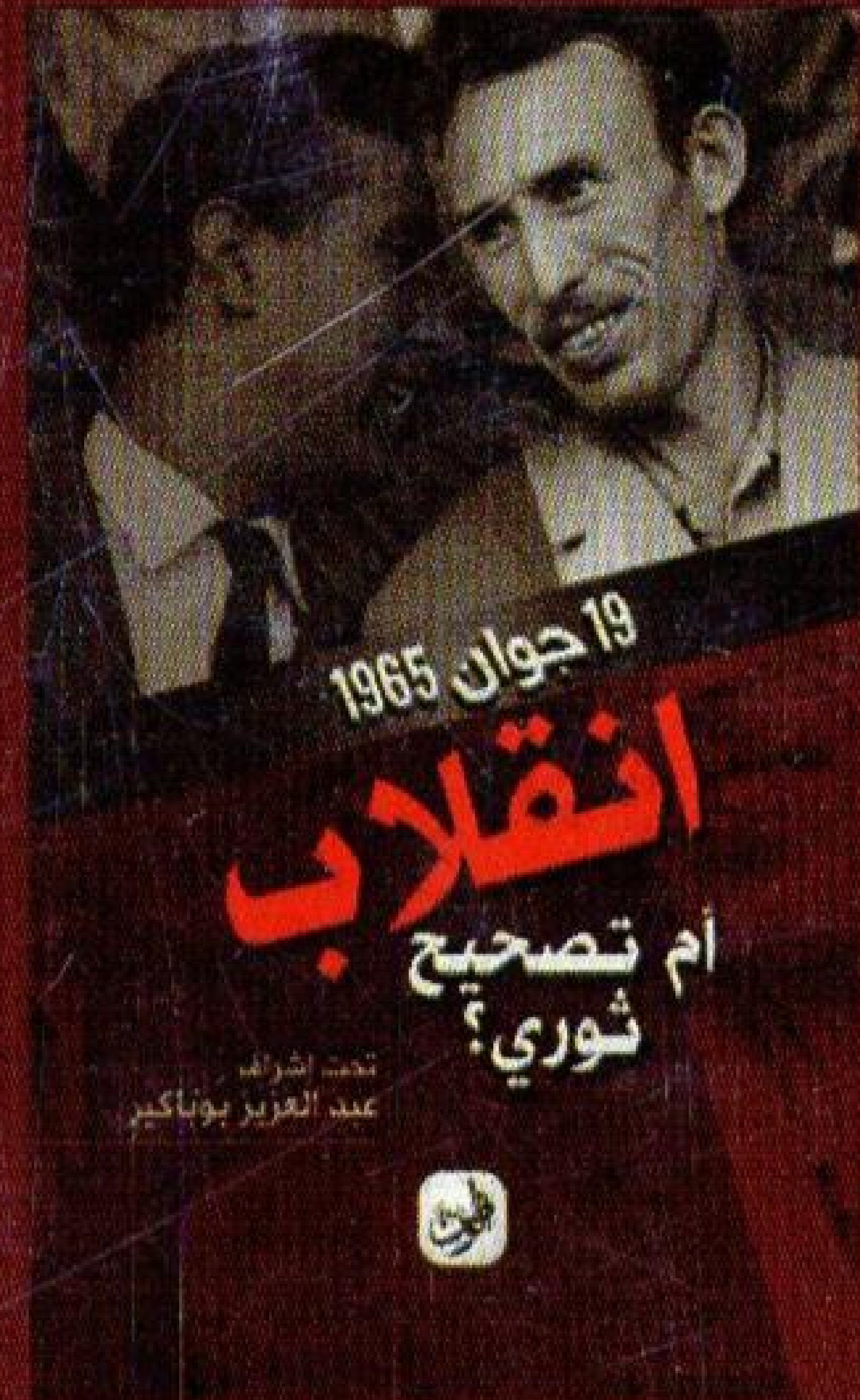
بوتفليقة رجل القدر

نابليون آمن أنّه رجل قدر، ورجل القدر لا يثق في أحد، ولا يأتمن إنسانا إلاّ أقرب المقربين إليه، لذلك حرص نابليون على إسناد المناصب الحسّاسة في الدولة إلى إخوانه وأقاربه، رغم ما عُرف عنهم من حماقة وطيش، ورغم أنّهم كانوا لا يصلحون لذلك. وكان يحلم بإعلاء مقام أسرته إلى مصاف الملوك والأمراء، رغم أصلهم المتواضع. بوتفليقة أيضا مثله مثل نابليون لم يعينّ في المناصب الهامة إلاّ أصدقاءه وأقرب النّاس إليه، فرجل القدر لا يحكم إلاّ برجال ثُقاة يفكرون مثله ويأتمرون بأوامره.









Cover design by: hakim@infografe.com



